ديمة ونوس

تفاصيل

قصص



تفاصيل



اسم المؤلف : ديمة ونوس
عنوان الكتاب : تفاصيل
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٧

Author : Dima Wannous
Title : Details
Al- Mada P.C.
First Edition : 2007

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

ديمة ونوس

تفاصيل

الغلاف والرسوم الداخلية: جبر علوان





الإهداء

إلى سعد،

روحه التي لاحقت هواجسي واحتضنت قلقي

جعلتني أملأ ذلك الصمت الكئيب بتفاصيل صغيرة أو كبيرة

جعلتني أتعلم الصمت وأحبه

إلى سعد،

إلى الفراغ العميق المحفور في روحي.

إلى روحك التي أعشق أهدي تفاصيلي الأولى.

ما كنت لأتجرأ يوماً على البوح بها لولا ذاكرتي المتقدة بصوتك

وإحساسك المفرط بالحياة.



المقدمة

تقدّم ديمة ونّوس. في محاولتها الكتابية الأولى. مجموعة من "الصور البشرية". يكمل بعضها بعضاً. منتهية إلى صورة "المجتمع الفقير". وهي فيما تفعل ترصد تفاصيل حياتية يومية. تُدرج "صورها" في "الأدب التسجيلي" أو تكاد.

ترصد الكاتبة. في نماذجها البشرية المتناظرة. معنى "المجتمع الفقير". حيث مَنْ يملك يفتقر إلى القيم الإنسانية البسيطة. ومَنْ لا يملك يفتقر إلى كل شيء. ومع أن الكاتبة تتخذ من ثنائية القامع والمقموع محوراً لها . فإنها تتعامل أولاً. مع آثار القمع المتمادية. التي تُفقر الإنسان وتحوّله إلى ظلال . ولعل هذا الفقر الشامل. الذي لا يستبقي من الإنسان إلاّ ظلاله. هو ما يفرض التكرار وتماثل الوجوه. منتهياً إلى سخرية سوداء. تعلن عنها ملامح البشر وأقدارهم. قبل أن تفصح عنها اللغة . ربما يكون التكرار . الذي يحيل على مجتمع لا جديد فيه . كما السخرية السوداء. التي هي التعبير الفنيّ عنه. هو ما يجعل هذه التجربة الكتابية الأولى جديرة بالقراءة والتأمل.

تنطوي هذه الكتابة على شهادة مزدوجة : شهادة على زمن موحش - يملي "التداعي" مبتدأ للكتابة. وشهادة على مجتمع يجعل من ممارسة

الأدب مهنة شاقة. إذ لا موقع للأدب في مجتمع يلهث وراء رغيف مفقود.

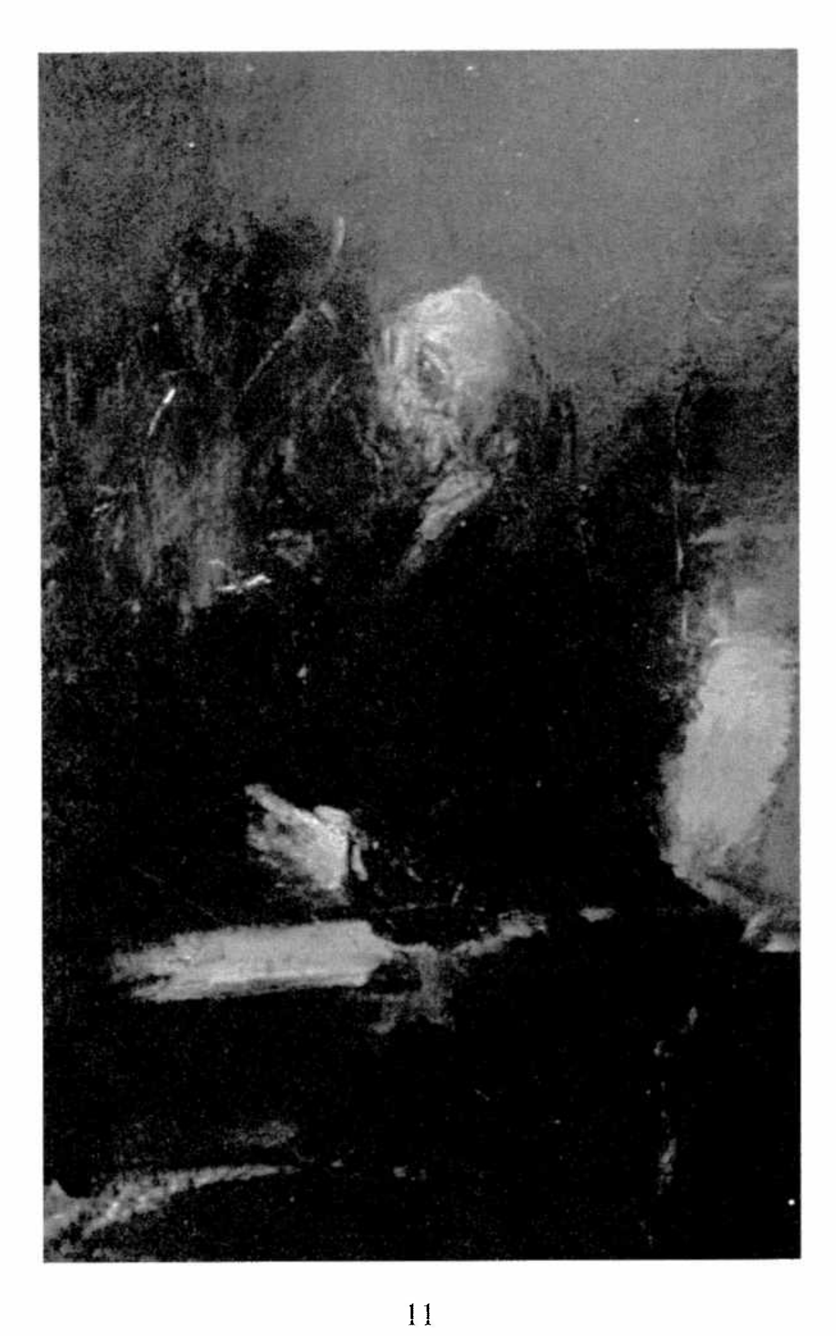
هذه كتابة تدافع عن الأدب وهي تدافع عن الحياة. أو تدافع عن العلاقتين وهي ترى إلى زمن تحرّر من التجانس والتكرار.

فيصل دراج

التفصيل الأول

جعفر





كعادته كل صباح، مع فلول آخر ذرة عتمة، فتح جعفر عينيه. تأمل ظلمة الغرفة. تلك الظلمة التي بدأت تخنق روحه. حرك جسده بثقل تحت الغطاء المرقع بألوان قروية. حرك جسده ليشعر بالحياة من جديد. ليرفض الاعتراف بواقع بائس. أبعد الألوان عن نحول جسمه. نهض بعزم. خرج من غرفته الكئيبة إلى الصالون حيث يغريه الهدوء الثقيل ويناديه. لم يتصور جعفر أن تجارب جديدة ستمتحن صبره، فهو في الخامسة والخمسين من عمره، وتجربة البقاء نهشت جسده لكنها لم تمس شعرة واحدة من شعر رأسه الأبيض والكثيف. إلا أن تفاصيل جديدة اقتحمت حياته دون تردد لتقتل عاداته الصلبة. كذلك الهدوء المغري في الصالون... تجربة لم يعشها من قبل. فصباحه يبدأ عادة في المكتب، وراء الطاولة المزدحمة ببيانات ومقالات وأوراق وتقارير وأشياء أخرى. طاولته التي صمدت ثلاثين عاماً أمام الشتائم والخوف والنجاحات والركل. وفي كل مرة كان جعفر يُنقل فيها إلى منصب أرفع، طاولته هذه كانت ترافقه بفخر وحب. بدأ هدوء الصالون يصرعه، هو الذي لم يعتد الهدوء. الكل نائم ما عدا الذاكرة المشتعلة بالقهر، ما عدا أسئلة يعرف جيداً الإجابة عنها لكنها تظل قاسية ومربكة لشخص اعتاد عمله لدرجة الإدمان. ثم فجأة، أثناء تربعه الكرسي الجلدي في المكتب، لمحت عيناه تلك الورقة اللعينة التي أعادته إلى رحم أمه. مجرد ورقة تافهة

طُبع عليها ختم رسمي، أرجعته إلى بيته وسرقت منه تفاصيل أدمنها. لا تقارير خاصة بعد اليوم، لا بيانات سرية، لا معلومات مخيفة، لا سلطة تحيط اسمه، لا شيء. كأي مواطن ثري، سيفتش عن أخبار الدنيا بين صفحات الجرائد، وستكتفي ذاكرته بالإشاعات التي تتداولها أوساط المثقفين أو المعارضة أو السلطة.

أبعد جعفر تلك الأفكار المحشوة بالسمّ عن مخيلته، ودخل إلى الحمام. الحمام أيضاً بدا خانقاً ومظلماً على عكس ذلك الحمام الفسيح، جدرانه كانت منقوشة بالأحلام، بلاطه الأبيض يثير شغفه بالعمل والحب والتعذيب حتى. نظر إلى المرآة، كأن سنوات طويلة مضت، كأنه شاخ فجأة، كأن تلك الورقة انسلت بهشاشتها إلى عظامه فأوهنتها، إلى وجهه فزادت ثناياه وشحوبه. أبعد عينيه بقسوة عن المرآة كأنها الدليل الوحيد على عجزه ووحدته.

ارتدى ملابسه بسرعة متجاهلاً نظرات زوجته المرتابة. زوجته التي تخاف أيضاً من تلك الورقة. تخاف من الحرمان. تخشى تأمل ذلك اليوم، عندما صرخ الرصيف الموازي لبيتهم من الفراغ. حتى الرصيف خاف وحدته، فبعد أن اعتاد التمدد تحت ست سيارات، شعر ببرد مهين ولم تعد تحمي عريه سوى سيارة واحدة.

تحاشى جعفر النظر إلى زوجته الممددة على السرير الفسيح. خرج بسرعة مرتدياً بنطاله العسلي وقميصه الأخضر وحذاءه البني. لم تُغسل ملابسه بعد، مازالت رائحة المكتب تفحّ من أنسجتها. البنطال المجعد لم يكو، فثنياته تذكّر بالكرسي الأسود المصنوع من الجلد.

خرج إلى حديقة المنزل. تأملها وكأنها المرة الأولى التي يلمح بها

تفتّح الياسمين، وكأنه للمرة الأولى يتنفس رائحة العشب الرطب. تكوّر في الزاوية تحت ظل شجرة السرو خوفاً من أن تصارحه الشمس وتفرش ظله المتعب على التراب المندّى. تسلّقت عينا جعفر أشجار حديقتهم الشامخة التي لم تعد شامخة بعد اليوم. تسلقها بروية ووهن حتى لمح السماء. نادراً ما لمح السماء في حياته، فهو غارق بأمور كثيرة على الأرض أهم من السماء والنجوم وكل شيء. فكر أن سماء دمشق بعيدة جداً ولا تثير أي رغبة في الروح. تذكر سماء باريس، غالباً ما أدهشه دنوها من الأرض، حتى أنه أمسكها مرة، لمس غيومها الملونة، واحمرارها الفاجر.

تأمل السماء من جديد، بدت فارغة من أي هاجس. حتى لونها الأزرق الكالح بدا عنيداً يقاوم بإصرار أي تغيير. ذكرته بعناده، ذلك العناد المخلص لفكر زعيمه. قاتل بشراسة ليدافع عن أمور يصعب الدفاع عنها. كان حريصاً على إخراس أي رأي يعارض فكره الراكد. ما يميزه عن غيره من المسؤولين، تلك الحنكة المخيفة التي يتكئ عليها لإقناعك بأسلوب متمكن بأشياء لا يمكن الاقتناع بها.

جرت العادة على أن يمضي جعفر في المكتب معظم يومه. وأحياناً ينام هناك. هذه الأحيان ترتبط بالعمل وبالهوى. سرير المكتب أرهقته سنوات العمل الطويلة. تعب من دلال الرخيصة التي شهد لهاثها وارتقاءها في عملها بعد كل لقاء مع جعفر. شهد السرير جسد دلال التي تعرت فوقه وفوق عدد كبير من الأسرّة المشابهة. فقط لتغرس قدمها في إحدى المحطات التلفزيونية، لتساعد زوجها الأحمق على الارتقاء هو الآخر ليصل إلى كرسي الإدارة.

الزمن يمضي ببطء مغيظ وكأنه يتلذذ بعذاب جعفر. هاتف جعفر لم يعد يرن. حتى دلال انسحبت بخفة من حياته عندما تناءى إلى مسمعها خبر تحييده وإبعاده شيئاً فشيئاً. لكن دلال خانته وحده، فسريره المكتبي مازال يلمح عريها.

تذكر جعفر أنه وعد أصدقاء بالذهاب إليهم مساء اليوم. عرفهم منذ بضع سنوات. عندما كان لا يزال قوياً، عندما كانت أفكاره تغير مجرى القرارت والخطط. عرفهم في تلك الفترة، عندما استهواه التقرب من المثقفين ومناقشتهم بأمور الحياة. هذه العلاقة الوثيقة التي ربطته ببعضهم، خلقت خيطاً أساسياً من نسيج توازنه. فهو يشد الحبل في مرحلة القوة فلا يخسر شيئاً، ويرخيه عندما يضعف فيكسب تعاطفاً نظيفاً يلمع به كرسيه الجلدي. معايير قوته وضعفه كانت ترتبط بشكل مباشر ببريق عينيه وبحة صوته. عندما يشبه أبناء شريحته من المسؤولين غالباً ما يكون قوياً، وعندما ينكسر بريق عينيه، ويصبح صوته حنوناً، وتفيض من أحاديثه رائحة التذمر والتمرد ،يكون غالباً ما يكون ضعيفاً مهمشاً.

زاره مرة في مكتبه المنتصب في أحد أرقى أحياء دمشق، صديق مثقف ومعارض. استقبله جعفر بود بارد. الرجل يدعى همام. يزوره بين حين وآخر ليثبت لنفسه قدرة أي شخص على خلق حوار ديمقراطي مع أي مسؤول كان، فهو من أنصار المرونة وليس التشدد. علاقة جعفر بهمام أربكته أمام المسؤولين والضباط، لكنها قربته من بعض المثقفين وجعلته محبوباً عند البعض الآخر. في تلك الزيارة اشتعل المكتب بالصراخ. اختار همام الوقت الخاطئ لزيارته ولإبداء رأيه بحملة الاعتقالات التي

كانت تحصل وقتذاك. فجعفر كان قوياً حينها، ولم يكن بوارد الضمير والأخلاق وتفضيلهما عن منصبه. انهال بالصراخ حتى تندى وجه همام برذاذ لعابه. جردّه من وطنيته التي اقترن وجودها بوجود الشعارات المجوجة والفكر المتحجر. خونه وما أسهل التخوين. اتهمه بالتعامل مع جهات خارجية للتآمر على الوحدة الوطنية والمبادئ الثابتة. كل ذلك الشتم سببه إبداء الرأي بموضوع الاعتقالات. يومها خرج همام يائساً من الحوار الذي دافع عنه وتبناه. أما جعفر فعاد إلى سكينته في المكتب الفسيح المزدحم ببيانات وتقارير سرية. تذكر تلك الزيارة وتذكر أنه وعد همام بالذهاب إلى بيته مساء اليوم.

شعر جعفر باليأس. عبء ثقيل يمسك بروحه ويرهقها. عليه الآن أن يتعلم حياة جديدة، أن يلقي التحية على جيرانه الذين خافوه دائماً. فكر أن معظم الأشخاص الذين تهافتوا إلى مكتبه يوماً، لم يكن يغريهم جعفر وإنما المكتب المحاط بالحرس والسيارات والصور والهالة المقدسة. ذلك المكتب المنتصب في أحد أرقى أحياء دمشق. عُرف جعفر بدهائه، بعينيه اللامعتين، بقدرته على إفراز فيض من الحنان يعادل بكثافته الشراسة والعنف. حتى شاربيه، كانت تربطهما بالدماغ شرايين تنبض دماً، فينتصبان إلى الأعلى أمام الضيق وتخبو قوتهما في لحظات الرضا. نحول جسده أبعده عن النكات التي يرددها الشارع عن ذلك الكرش الذي يلون أصحاب المناصب، فشراهتهم أكلت الوطن ونهشت عظامه.

بدأ الهدوء يخبو شيئاً فشيئاً. ونوافذ الجيران تُفتح واحدة تلو الأخرى. تناءى إلى مسمعه دوي الشعارات الصباحية في المدرسة

المحاذية لبيتهم. كانت مدربة مادة "الفتوة" الإلزامية تنبح بكل طاقتها كأي عسكري مخضرم. تصرخ مرددة تلك الشعارات، فتردد البنات من بعدها أهداف الأمة وتخليد زعمائها. ألم يكن جعفر واحداً من قلة تجرؤوا طرح تغيير لباس "الفتوة" من الأخضر الكاكي إلى الأزرق ؟ لم يمارس قناعاته بشكل حقيقي، لكنه استخدم الصلاحيات القليلة التي يملكها لتحسين بعض الأشياء. حرص على إبداء رأيه بما يجري، على تقديم مقترحات وحلول، على شحذ ذاكرته التاريخية ليحلل ويفكر ويلامس الخلايا التي تضعف البلد.

من يصدق أن جعفر أقيل لأن أفكاره لم تعد تناسب ظروف المرحلة ؟ من يصدق أن عناده في الفترة الأخيرة وتمسكه بآرائه "المتفتحة" كزهرة حديثة الولادة هما من أعاداه إلى رحم أمه ؟ احمرّ وجه جعفر وتجمعت دماء العالم بأسره في وجنتيه اللتين بللهما العرق. في وجهه الباهت الذي خسر كل شيء. خسر منصبه الرفيع برفع جسده، ولن يصدق أحد أن البيت كان خياره بشكل أو بآخر. جعفر عرف جيداً أنه سيهمش ويبعد. فدهاؤه جبار. انشغل خلال السنوات الأخيرة بنسج علاقات ناصعة تساعده على الحياة بعد أن يُرمى بعيداً.

لمح شبح زوجته من خلف الستائر الحريرية. خرجت بتمهل كي لا تفقد توازنها وتفسد مظهر فنجاني القهوة.

لم ينظر إلى عينيها. فالضعف يطفو على أزرقهما. هي التي دفعته دائماً لتسلق المجد بأي ثمن وأي وسيلة. هي التي علمته بصلابتها وعنادها شغف التملك وعدم الاستسلام. كان جبروته إن ضاع، يختبئ في عينيها ويتسلل بخفة إلى روح جعفر. المرأة التي كرست روحها

ليحلّق جعفر، لن تقوى اليوم على فتح ذراعيها لتعانق هشاشة جسده والضجر الذي يوهن يومه. حتى خيانته لها مع دلال كانت تغفرها ذلك الحين، فمنصبه وترف حياتهم أهم من كل الخيانات. أما الآن فليس هنالك تفصيل أهم من تجريحه لها طوال السنوات الفائتة. صفعته أمل بنظراتها المعاتبة، كأنها تلومه على عودته المهينة إلى البيت، على تشبثه بمواقف غريبة في الآونة الأخيرة. كانت صلابتها فطرية، فهي لم تلمّ بخفايا حسابات السياسة وأحابيلها. قد لا تعرف أن جعفر تمسك بمبادئ لا تشبهه، فقط ليحمي سمعته السيئة من المزيد، ليخرج من اللعبة بطلاً مناضلاً، لينسج حول نحول جسمه شيئاً من العذوبة والنقاء. أمل لم تلمس يوماً زيف تلك القناعات، ليست قادرة على فهم ما يجري. الفرق بينهما أن جعفر محنك ويعرف جيداً أن منصبه وسلطته التي فرضت على كل ذرة تراب في الشارع أن تقف مرتجفة لدى مروره، كلها متعٌ مؤقتة وبالتالي، كان عليه أن يراكم بعض العلاقات النظيفة والشريفة ليتكئ عليها بعد انهياره. أمل لم تصدق يوماً أن ذلك الترف لن يعيش إلى الأبد وأن الوحدة ستلتهم روحها بعد استقالة زوجها المصون.

حاولت أمل أن تحكي، لكن حجراً قاسياً كان عالقاً في حنجرتها. أرادت أن تحكي لجعفر مأساة عدي المسكين الذي أمرضته الحادثة وسرقت من جسمه المكتنز الترف كلّه. عدي الذي يقاس دلاله بميزانية وطن بأسره، الذي دُفع لتعليمه ما يُطعم ملايين البشر دون جدوى. فهو لم يفلح بشيء سوى التنقل من مقهى إلى آخر، ولملمة عشرات الفتيات المراهقات والسهر حتى الصباح. شاب قبيح وبدين، تطلّ من نافذة

قميصه ندب سوداء مقززة. عيناه الغائرتان لا تنمان إلا عن فراغ. نبرة صوته تصم الآذان خاصة وأنه يبلع أحرفاً كثيرة. يذهب كل صباح إلى مقهى قريب من بيتهم. يصاب العاملون هناك بالذعر عندما يلمحون شبح "الشبح" التي يقودها دون رخصة. يدخل كبطل حقيقي. يحظى بأحسن طاولة. يثير بلبلة واستياءً. فهو يتحدث بصوت عالٍ ويضحك بشكل فاجر ويسخر من العاملين في المقهى ويهينهم أحياناً. الكل كان يتعجب من قدرة بعض الفتيات على مداعبة وجه عدي المحفور بالملل. الفتيات اللواتي كن يأكلن ويشربن ويلبسن على حسابه... حساب الوطن.

أرادت أمل أن تغرق بالبكاء، أن تبوح لجعفر بمأساة عدي. لكن ذلك الحجر اللعين انتصب بثبات في حنجرتها فلم تقو على التفوه بأي حرف.

شعر جعفر بالاختناق، غصة مالحة تهشم حنجرته. زاده عدي قلقاً واستياءً. أسئلة معقدة أخذت تخنقه بحدتها. لماذا أقيل ؟ لماذا الآن ؟ كيف سيقحم يومه بتفاصيل تشغله عن هذه المأساة ؟

بدأت رطوبة الصباح تهرب من حماسة الحرّ. والشمس تبلع بفجور وجه جعفر وكأنها هي أيضاً ستعوض سنوات الخوف من ظله وستصب الآن لهيبها كله على جسده. انسحب جعفر من أفكاره إلى الداخل حيث الطقس أكثر رطوبة.

فجأة، شعر بالجوع إلى المكتب والكرسي الجلدي. لقد جاع بسرعة فلم يمض على رحيله سوى أسبوعين. كأنهما سنتان فالزمن يمضي ببطء مغيظ كأنه يتلذذ بعذاب جعفر.

ظل ساكناً حتى الساعة السادسة. لم يتحدث مع أحد، ولم يحدثه

أحد. الكل غاضب في البيت وحزين. حتى قصي الثرثار لم يسمع صوته. لم يفقد قصي في الواقع سوى هلهلة المحيطين به. فهو نهش لسنوات طويلة اسم أبيه ليخلق لنفسه شركات ضخمة تطعمه وتطعم أسرته وأسراً كثيرة. وبما أن جعفر يعرف جيداً أن منصبه وسلطته التي فرضت على كل ذرة تراب في الشارع أن تقف مرتجفة لدى مروره، كلها متعٌ مؤقتة، علّم ابنه كيف يؤسس شركاته الضخمة بتراب مستورد. بالتالي لم يفقد قصي بعد إقالة والده سوى هلهلة المحيطين به. قصي أقل قباحة من عدي ويطمره ذكاءً. يحب الثرثرة والنميمة والأسرار، وهو مقرب جداً من قلب جعفر إلا أنه كأمه، شرس الطبع وجلف، فابتعد عن أبيه منذ ذلك اليوم اللعين وفضل الصمت.

ظل جعفر ساكناً مستسلماً لسكون أمل البدينة والمصابة بالسكري والتي ازداد وضعها الصحي سوءاً بعد تلك الحادثة. ظل ساكناً إلى أن بدأت الشمس تغفو بعناد منتظرة الغد لتغرق جعفر بلهبها وتلوعه.

الساعة هي الآن الثامنة مساء بتوقيت دمشق. لكنها ليست كذلك بتوقيت جعفر. جعفر الذي يتلذذ الزمن بتعذيبه. قد تكون اللحظات هذه من أعذب اللحظات. أو أنها كذلك بالفعل. فزيارته لهمام ستكون فرصته الأولى في هذا اليوم الموحش والصامت ليتحدث، ليبوح بالدم المرهق الذي يشل رقة شرايينه. سيثرثر ويضحك. لن يعبس همام في وجهه، بل على العكس سيحتضنه كصديق حميم. ويمارس بلهفة للمرة الأولى ربما تلك الندية التي خلقتها إقالة جعفر.

لمح جعفر ابتسامة همام العذبة من وراء الباب الخشبي. قبّل عينيه بحنان مفرط ودخل بارتباك كأنه يتعلم المشي للمرة الأولى. تذكر ارتباكه

في الشـارع قـبل دقـائق. كـأنهـا المرة الأولى التـي تطأ قـدمـاه العـتـبـة الخارجية للبيت. كأن أصوات السيارات كانت تنبح في وجهه. حتى أنه ظن للحظات أن كل المارين بجانب سيارته كانوا يتغامزون على جعفر الذي فقد منصبه وحوله الختم الرسمي إلى مجرد ثري مسكين. للمرة الأولى يعرف أن دمشق صاخبة ويسكنها الدخان الأسود. للمرة الأولى يلمح زعيق السيارات الخضراء العالية التي تعطب في منتصف الطريق وتبلبل الشارع وترفض الحراك.

لمح جعفر غبطة همام وأذابه عناقه الحار. جلس في الزاوية نفسها التي يتكور فيها عادة. تأمل الصالون بروية. لم يتغير فيه شيء. كل تفاصيله ما تزال معلقة على الجدران. وهمام لم يتغير أيضاً. تذكر فجأة أن المرة الأخيرة التي قابله بها كانت منذ شهر. ليس ذلك بالوقت الكافي ليتغير به أحدهما. لكن الزمن يمر بثقل مغيظ بالنسبة إلى جعفر، حتى أن الأسبوعين استطاعا حفر وجهه بالكهولة والأرق.

أعفاه همام من ابتكار حديث ما، وشرع يتحدث عن الغيوم الداكنة التي تنعقد في سماء دمشق. تحدث عن العنف الذي بدأ ينبت ويورق. تحدث عن ذلك الخوف المهين الذي يمنعه من النوم. تحدث عن عمله الذي لم يعد يطاق. تحدث عن تحييد جعفر وإبعاده. أخبره أن التهميش في بلادنا، هو شرف عظيم واعتراف صريح باستقامته وعمقه.

أنصت جعفر ببراعة مخضرمة، واكتفى كعادته بهز رأسه بهدوء وحكمة، رافعاً حاجبه الأيسر بين حين وآخر ليوافق همام على أفكاره.

سار أول كأس من العرق في شرايينه كالسم. أما الثاني والثالث فكانا أكثر سلاسة. دغدغا أوردته بخفة، ودفعاه إلى الاسترخاء والبوح.

بداية، راقه الحديث عن إبعاده وعن الأسباب التي يلمحها وراء ذلك القرار. تكلم بحدة ليدافع عن ارتخاء خلايا جسده بعد الكأس الثالث. تحدث عن الحرية التي اعترته يوم أقيل. عن ذلك اليوم الذي زاره همام في مكتبه واشتعل المكتب بصراخ جعفر. عن تلك المرحلة التي أجبره فيها منصبه على الرضوخ لمفاهيم عتيقة. تحدث عن قناعات لا تشبهه وكأنها متأصلة في روحه، وكأنها الجذر الذي أورق منه جعفر. تحدث عن الزعيم الذي ما تزال صورته تتربع حائط الذاكرة. نعته بأفظع الصفات. شتم الفكر المتحجر الذي تبخرت الغيوم الداكنة من مائه. سبّ الشعارات التي حولت الوطن إلى بركة آسنة لا يسكنها سوى البعوض الشرس.

أنصت همام بقلق مخضرم، شعر بنبضاته تمزق جسده. نظر إلى جعفر بحنان وطلب منه أن يتمهل قليلاً. فهمام لا يمتلك حائطاً أو حتى ظلال حائط ليتكئ عليه ويحمي روحه من الأقبية المظلمة التي لا حياة لمصير في هوائها الرطب.

التفصيل الثاني

مها



غيوم داكنة تمددت هذا الصباح في سماء دمشق. لكنها كشفت تجمعها فوق بيت مها لتغيظها، فهي تكره السحاب وتتشاءم من العتمة وتخشى الرعد والبرق وتخاف من الكوارث الطبيعية وتثابر على متابعة النشرة الجوية وأخبار الزلازل والأعاصير وسرعة الرياح. لكن مها فاجأت الغيوم ولم تكترث لتغيّب الشمس صباحاً. فاليوم مشرق في روحها ولن تفلح أي قوة على الأرض بتعكير مزاجها أو إثارة الخوف في نفسها.

ستعيش اليوم حياة حلمت بها منذ خمسة عشر عاماً. زمن مضى وهي جالسة وراء طاولتها المعتادة. تنجز عملها بشكل آلي بحت. تصمت إن لزم الأمر. وإن سئلت عن رأيها بأمر ما، تجيب بحذر وبكلمات مقتضبة ومدروسة للغاية. الكوارث الطبيعية والحروب والعمليات الإرهابية واكتشاف فوهة بركان في سورية وتنبؤ أحد الفلكيين بزلزال مدمر في المنطقة، هي المواضيع الوحيدة التي تدفعها إلى الحديث بإسهاب وتحرير مشاعرها وأحاسيسها. خمسة عشر عاماً مضت، وهي في مكانها المعتاد. لا يعنيها أي خلاف في العمل. لا تتدخل بأي حدث يبلبل المؤسسة التي تعمل فيها. تبتسم باستمرار حتى صارت الابتسامة تفصيلاً لا يختلف عن عينيها أو ثغرها أو أنفها. ولم يعد التعبير عن مزاجها السيء يتجلى بعبسة مثلاً أو بتكشيرة، وإنما ببريق العينين الذي يخبو دون أن نستطيع حقاً منعه من التواري في لحظات التعاسة.

فتحت مها نوافذ الصالون الثلاث وتنفست الهواء البارد المندى ببكاء الغيوم طوال الليل الفائت. فتحتها على مصاريعها فبدت الشبابيك وكأنها تعانق مها وتضمها إلى صدرها. مها لم تستسلم لهذا العناق الصباحي. جلست على الكرسي قبالة السماء المسربلة بالرمادي، وبدأت تمج سيجارة الصباح بتوتر لذيذ. ربما يكون هذا أول صباح لا تنشغل مها فيه بترتيب حساباتها وعدّ الفلوس المتبقية من راتبها وراتب منير وحصر مخيلتها لإيجاد حل يطيل عمر المازوت في "البيدونات" دون أن يتعرض ابنها الوحيد للبرد. ستستطيع الآن تغيير ألوان الجدران التي لم تنج من شراهة الرطوبة. ستغير فرش البيت العتيق والكئيب الذي باخت ألوانه وتآكل قماشه وصار يفضح عري الإسفنج. ستشتري ملابس جديدة لعائلتها الصغيرة. فكرت أنها لن تفوت هذه اللحظات النادرة وتعود من جديد لتنشغل بالأمور المادية. فجأة، شعرت بخوف قاس ينخر عظامها ويبلبل صباحها. ماذا لو اعترض زملاؤها في قسم التحرير على قرار تعيينها مديرة لهم ؟ طيب، ماذا لو رفض المدير العام توقيع القرار بحجة أنها تفتقر للكفاءة مثلاً، أو أنها غير قادرة على إدارة قسم بأكمله نظراً لشخصيتها الضعيفة وخوفها من المواجهة ؟ لكن المدير لا يعرف بالتأكيد كل هذه التفاصيل ولا يربطه بها أصلاً أي علاقة شخصية. لنفترض أن أصدقاءها في العمل أفرحهم الخبر، وأن المدير العام وقع القرار كغيره من القرارات دون الدخول في التفاصيل، ألا يمكن أن تلجأ المديرة السابقة نجاح إلى وساطة ما فيمدد لها وتتشبث بالكرسي ؟ لكن نجاح بلغت سن التقاعد ولا يمكنها قانونياً أن تعود إلى العمل. كعادتها، مها لا تفكر إلا بالخيبات المحبطة، لديها قدرة خارقة على

تعكير مزاجها ومواجهة التفاصيل المفرحة بقلب مفعم بالتشاؤم والتعاسة.

غرقت مها بأفكارها وباص العمل كان على وشك الرحيل دونها، دون حضرة المديرة. دخلت بسرعة إلى غرفتها الفقيرة، الباردة، حيث يشعر السرير بالوحدة فلا خزانة ملابس يحدثها ولا طاولة أو كرسي يبوح لهما بشقائه وهمومه. وعندما قررت مها شراء أثاث إضافي لغرفة نومها أحضرت مرآة طويلة وضعتها قبالة السرير تماماً، فصار السرير يلمح كل يوم خشبه المتآكل وقدمه المكسورة من الأمام. ارتدت ملابسها على عجل و لم يفتها وضع الكحل في عينيها والأحمر على شفتيها الصغيرتين. ملامحها عذبة بالنسبة إلى عمرها. لكن قامتها قصيرة إلى حد مزعج لها وللمحيطين بها. بشرتها كالثلج بيضاء شفافة مساماتها واسعة تبدو كرغوة البيرة عندما تنفخ عليها تمتلئ بالفراغات. عيناها عسليتان. شعرها قصير وخرنوبي تصبغه باستمرار بلون أشقر ذهبي. جسدها الممتلئ يبدو بديناً تحت الثياب. فالتنورة الطويلة تجعل قامتها مكبوسة والشال الذي تلفه على عنقها يعطي الانطباع بأن لا رقبة لها.

خرجت من البيت مرتبكة وقلقة. نزلت الطوابق الخمسة. أحست أنها تحلم. شعرت أنها ستنزل وتنزل دون أن تصل إلى الخارج. فجأة اكتشفت أن الدرج طويل ولأول مرة تعي حقيقة أنها تسكن في الطابق الأخير وأن النزول متعب كالصعود بالضبط. زمور أبو محمد قاطع أفكارها. فهرولت مسرعة لكن قامتها القصيرة لا تساعدها على القيام بخطوات طويلة فعندما تركض تبدو وكأنها تخوض سباق الجري السريع. أخيراً، لمحها أبو محمد قادمة من بعيد، لم تقوَ كالعادة على فتح باب

"السرفيس"، فساعدها أحد الزملاء. ارتمت على المقعد الخلفي. حاولت عبثاً السيطرة على لهاثها، فاكتفت برفع رأسها وحاجبيها لتحيي أبو محمد. مها تعشق هذه اللحظات. فالحياة لا تطالبها أثناء النصف ساعة التي تفصل بيتها عن العمل إلا بالجلوس على الكرسي بجانب الشباك، والنظر إلى الدنيا تعبر أمامها بسرعة أحياناً وبروية أحياناً أخرى حسب سرعة أبو محمد. لم تكترث مها اليوم للتمعن بالمشاهد التي تراها، وطلبت من أبو محمد أن يسرع قليلاً.

وصلت عند الساعة العاشرة تماماً. المدير مشغول بتوقيع البريد. جلست في غرفة الانتظار. لم تدخل هذه الغرفة طوال الخمسة عشر عاماً سوى مرتين. مرة لتطلب أن تثبت في العمل وتصبح موظفة رسمية فيزيد راتبها بعض الشيء وتشملها المكافآت والزيادات التي يوصي بها رئيس الجمهورية في الأعياد، وتحصل على إجازة سنوية. ومرة ثانية عندما طلب المدير العام الاجتماع بقسم التحرير لتوعيتهم بضرورة الدقة أثناء تحرير الأخبار "نظراً لدقة المرحلة". تأملت مها غرفة الانتظار بإعجاب كبير. كنبة كبيرة لونها كحلي يتسلل اللون الأصفر إلى دكونها بجلافة، تتدلى من أطرافها شناشيل ذهبية اللون كالحة من شدة الغبار. منتصف الغرفة، هناك طاولة أقدامها خشبية، على سطحها الزجاجي مزهرية يدوية من الصوف الملون فيها ورود اصطناعية محشوة بالسواد والوسخ. مكتبة ضخمة تتصدر الحائط الموازي لباب غرفته. تختنق رفوفها المقوسة من ثقل ما تحمل، بموسوعات علمية وكتب عن تاريخ حزب "البعث" الحزب الحاكم وسلسلة عن القومية العربية وبعض الكتب العتيقة عن الاشتراكية. الحائط الآخر يكاد يردم من المسؤولية العظيمة الملقاة على

كتفيه، ففي منتصفه لوحة ضخمة مكتوب عليها "أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة". أهدافنا "وحدة، حرية، اشتراكية".

" المرحلة في غاية الدقة. الإعلام هو الوسيلة الأقوى لمواجهة المخطط الصهيوني الذي يحاك لتهويد أرضنا العربية وتصفية كرامة المواطن العربي. الآن، أنت جزء من إعلامنا الذي يقف وجهاً لوجه أمام الضغوط الخارجية والذي يتعالى عن الصغائر وعن النزعات العنصرية لدى بعض الأطراف والضغينة لدى البعض الآخر ".

لم تسمع مها المواعظ التي كركرت من فم المدير العام. كان همها أن ترى قرار تعيينها مختوماً بشكل رسمي وتهرول إلى قسم التحرير لا كزميلة وإنما كمديرة تتربع الكرسي الخشبي وراء الطاولة المحشورة في زاوية الغرفة. الغرفة الصغيرة جداً حيث المكاتب الثلاثة متراصة بشكل مزدحم. فقط مكتب المديرة منفصل عن بقية المكاتب ومكانه في الزاوية الغربية ويطلّ على جبل قاسيون الذي يسند دمشق.

خرجت مها من غرفة المدير العام. هرولت، ركضت، حلقت، أرادت ابتلاع الدرج المفضي إلى قسم التحرير. أن تتسلل غيمة من الخارج تحملها وتجنبها عناء تسلق الدرج. فهي عندما تصعد الدرج تبدو وكأنها تتسلقه، تمسك بالدرابزين، تشد جسدها إلى الأعلى، يصل جسمها قبل ساقيها القصيرتين.

زملاؤها في قسم التحرير يعرفونها جيداً. يلمسون خوفها بوضوح كبير. يلمحون ضعفها وشخصيتها المهزوزة بعين لا يبللها الغبار. دخلت مها بثقة كبيرة وحماسة استعراضية لتحمي ضعفها وارتباكها من الانهيار. انشغلت بترحيب زملائها البارد وبتهنئتهم لها بأسلوب فظ. انشغلت بخشيتها من جلافتهم.

في الواقع، لم يمنحها الكرسي سوى مزيد من الخوف والحرص. خاصة وأنها صارت المسؤولة عن هذا القسم وبالتالي عن كل ما يدور فيه من أحاديث ونقاشات. ولم تعد الزلازل والبراكين هي المواضيع الوحيدة التي تفجر صوتها وتحرره. فالكرسي غالي الثمن والحفاظ عليه يتطلب تنازلات قاسية. الدفاع عن سياسة النظام الحكيمة والتهجم على الزعماء العرب الذين باعوا وطنيتهم مقابل ملايين الدولارات أضحيا شغلها الشاغل. تنهمك طوال فترة العمل بلملمة آراء المحيطين بها والرد عليها بعنف مغيظ. لا يفوتها أي غمز ولا تخفى عليها أي همسة. تحارب كل تجديد في أسلوب صياغة الخبر. في الحقيقة هي لا تحاربه وإنما تخشاه. تخاف منه، تتخيله قبضة من حديد ستنتزع منها الكرسي بالقوة. صارت بخيلة أو بالأحرى حريصة كل الحرص على أموال الدولة. تدخر الأوراق الصفراء العتيقة التي تُكتب عليها الأخبار، خوفاً من أن تلام في يوم من الأيام على نفاذ الورق باكراً وبالتالي تحاسب على إسرافها وتخسر الكرسي. وعندما يتحدث زملاؤها عن الوضع ويناقشون مواضيع الفساد أو القمع أو التشدد، تهرول مها و تخرج رأسها الصغير من الباب لتطمئن لخلو الممر من أحد الفضوليين. تغلقه بإحكام وتعود ببطء إلى طاولتها وترجوهم أن يصمتوا، أن يخفضوا أصواتهم على الأقل. صارت تخفي عنهم كل المهمات الرسمية، لتنفرد وحدها بتغطية الأعياد الوطنية والاحتفالات، فتشتري بثمن تملقها مسماراً جديداً تثبت فيه الكرسي لوقت أطول.

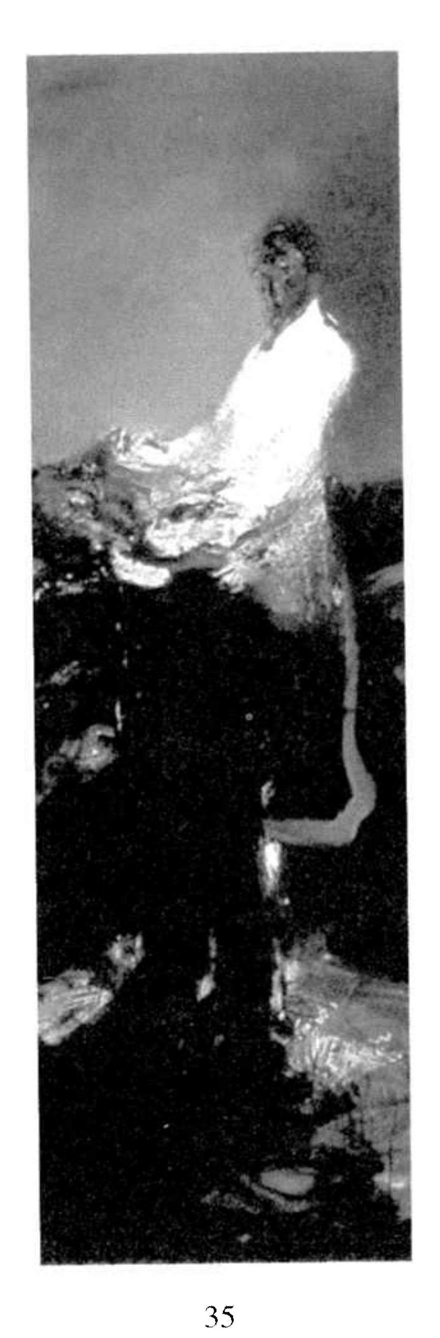
باختصار، ستودع مها البراكين والزلازل والاكتشافات الأثرية إلى أجل غير مسمّى. فالحديث عنها لا يجدي نفعاً ولا يصنع مسامير في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ أمتنا.



التفصيل الثالث

جهاد





رصيفٌ بلاطه مرتب ومصفوف بشكل محترم على عكس أرصفة الشوارع الأخرى. يتكئ عليه سور حديدي تخفي قسوته نباتات مضى زمن وهي تتعربش السور الداخلي لتصل إلى القمة وتلمح إيقاع الحياة في الخارج. باب أسود شديد الضخامة يتسع لأي سيارة تعبره إلى الداخل. خلف السور، حديقة كبيرة أشجارها المعمرة سافرت من المغرب وفرنسا لتسكن حديقتهم. أزهار شديدة الكرم، ما أن تلمسها نسمة صيف خجولة حتى تلفظ رائحتها. الأرض المعشوشبة مرتبة بطريقة بديعة، فالعشب ينمو بشكل جماعي ولا يُسمح لعشبة أن تكبر أكثر من جارتها. باب البيت من الخشب الثمين والنادر. فهو يحمي حياتهم من عيون المارة الحاقدين والجاحدين. المارة الذين يحسدون باستمرار من أنعم الله عليهم بمال حلال وبأرزاق بللت جباههم بغزارة حتى تراكمت.

وراء الباب مباشرة، صالون فسيح يمطر ترفاً وفخامة. أرضه الرخامية متخمة بالأثاث الإيطالي والتحف المذهبة. تماثيل عارية تنتصب بفخر في زواياه. لوحات أصلية معلقة على الجدران بعشوائية مفتعلة، فاللوحة التي يغلب عليها اللون الأحمر مثلاً تتصدر الحائط الذي يسند الأريكة الحمراء. أما الكنبات الصفراء فترقد بسلام تحت لوحة عباد الشمس، وهكذا. أربع طاولات تتوسط كل ركن من أركان الصالون. طاولات من السنديان مستديرة خوفاً من الرؤوس. شتلات تتدرج ألوانها

بين الأخضر الداكن والأخضر المائل إلى الصفرة والأحمر الخريفي الحار مبعثرة في كل مكان. أضواء خافتة تتسلل من تجويفات مخفية في السقف.

في تلك الزاوية، حيث تتدلى شجرة الأروكاريا والضوء المرهف يتلصص من بين وريقاتها ليرسم انحناءات لطيفة على الجدار الأبيض. هناك، في تلك الزاوية تحديداً جلس جهاد على كرسيه المفضل المصنوع من الخيزران الملون. طاولته الصغيرة التي حملها من الهند تقف باستعداد عند قدميه. على سطحها منفضة سجائر. سيجار ثخين. أعواد كبريت طويلة وفنجان قهوة. حمل جهاد بيده اليسرى رواية "بتوش الحلوة" للكاتب التركي عزيز نيسن، ويده اليمنى متفرغة تماماً لتحمل فنجان القهوة بين الفينة والأخرى أو لتدحش السيجار بين أصابعها الثخينة أو لتهوي بصفوته بشكل آلي على المنفضة الزجاجية المستطيلة المصنوعة خصيصاً للسيجار. تلك الرغبة اللعينة بالتألق تدفعه للقراءة. تغصبه على تصفح أحدث الكتب السياسية والروايات والقصص والمسرحيات فقط ليخبر أصدقاءه المعدمين الذين لا يملكون في الواقع مايتباهون به سوى مخزونهم الثقافي، أنه هو أيضاً يحب الاطلاع ويمتلك شغفهم ولن يستطيعوا التفوق عليه بأية عادة أو أي هاجس. ربما هي ليست رغبة، وإنما عقدة تحفر روحه باستمرار و تذكّره أنه جهاد مصطفى الآغا. ابن أهم المسؤولين المتقاعدين الذين حافظوا على مناصبهم ثلاثين عاماً وأصبحوا متألقين كنجوم السينما بالضبط. إن وجدوا في مكان عام، يتدافع الناس من مقاعدهم للحصول على توقيعهم أو لالتقاط صورة بقربهم أو لتأمل وجوههم السمحة على الأقل.

يصرّ جهاد دائماً على انتزاع هذه الفكرة من رؤوس كل من يعرفهم. لكنه لن يفلح بشلع ثلاثين عاماً تجري في دمائهم. في محيط الفؤاد تحديداً فتجعله ينبض بذعر وأسى. مصطفى آغا صار كالعطر، ما أن يُلفظ اسمه حتى تسري قشعريرة في أجساد الناس ويتخبط يومهم. صار كالأسطورة في أذهانهم، فالسنوات تمر ومصطفى آغا يجلس وراء طاولته في الوزارة لا تستطيع قوة على الأرض أن تزحزحه ولو قليلاً من مكانه. الناس تمرض وتموت وتهاجر وتغترب وتعود إلى الوطن ومصطفى آغا ينتظر عودتهم في مكانه المعتاد.

في تلك الزاوية تحديداً، رسم دخان السيجار غيمة صغيرة فوق رأس جهاد بدت وكأنها الهالة الشفافة التي تعلو عادة رؤوس الملائكة. جهاد يتابع قراءته بمتعة تثير الحسد. لكن هناك مشكلة. في كل مرة ينجح فيها جهاد بإبعاد زوجته عن مخيلته، تعود من جديد لتلبس شخصية "بتوش الحلوة". يتصورها وهي تدلل ضيوفه وتتدلل عليهم. تتحدث معهم وتساير ميولهم الأدبية والسياسية والاقتصادية والفلكية وأحياناً العاطفية. تزوجها وهي في الخامسة عشرة من عمرها. كانت هزيلة وناعمة. طفلة لا يهمها من الزواج سوى الانتقال من بيت أهلها في حلب إلى بيت زوجها في العاصمة دمشق. سكنت بيته. تفتح جسدها. صارت فجأة امرأة ضخمة. جسمها الأسمر ممتلئ ومربرب. قامتها طويلة وجذابة. عيناها زرقاوان. شعرها بلون الفحم كثيف وناعم.

جهاد متوسط القامة. نحيل لكنه يملك كرشاً يبقيه حياً لأشهر دون طعام. لونه حنطي مائل إلى الأحمر. وجهه الناعم منقوش بالنمش. شعره البني خفيف ومجعد قليلاً. عيناه لئيمتان إلى حد بعيد. يبدو أنفه

كتفصيل أضافه الله دون قصد، فهو ككرة صغيرة ثُبتت على عجل وقد تسقط في أي لحظة. شفتاه صغيرتان ولونهما باهت. أسنانه قصيرة ومزدحمة في فمه فيبدو وكأنه لم يخسر أي سن منذ الطفولة وأن أضراس العقل الأربعة ولدت هي أيضاً واستقرت في فمه وستبقى في منصبها ثلاثين عاماً أيضاً، وفيةً تلوك النعمة بشراسة فتصبح سهلة الهضم.

لا يملك جهاد سوى شركة ضخمة تضم معمل نسيج ومصنع لحوم معلبة وآخر للأحذية ورابع للورق المقوى وخامس للطلاء. هذه الأملاك المعلنة. أما غير المعلنة فهي مجرد رخصة ملابس إيطالية ومجمع ضخم لكل مستلزمات البيت من الطحين إلى الأثاث وشركة تأجير سيارات ووكالة أحذية فرنسية. وبهذا يكون جهاد من أهم المساهمين في دعم الاقتصاد الوطني ورفع مستوى المعيشة وتشغيل اليد العاملة. وبالتالي القضاء على البطالة.

في تلك الزاوية تحديداً، حيث بدأت شجرة الأروكاريا تكح من دخان السيجار، كان جهاد لا يزال غارقاً في كتابه وخيال زوجته يرقص أمامه على خشبة المسرح كـ"بتوش الحلوة". تنحني بطريقة مثيرة فيتدلى نهداها وينهمر شعرها الكثيف وتتساقط قطرات عرقها على الخشبة وتتبخر فوراً من حرارة خصرها. خصرها الذي يهتز بمرونة عجيبة فيعطي الانطباع بأنه منفصل عن جسدها الثابت.

في حديقة بيتهم، غيمة ينهمر منها عرق جبينه كل يوم فأمطرت حتى الآن خمس سيارت مركونة تحت مظلة حديدية تستلقي على سطحها دالية عنب مهملة. سيارة كبيرة شبابيكها السوداء ترهق العين وتثير الغموض. وأخرى صغيرة لكن لونها الفضي يجعلها تبدو فسيحة. سيارة

حمراء كبيرة. ورابعة زرقاء كانت هدية جهاد للسيدة بتوش جهاد آغا في عيد ميلادها الثلاثين. تناسب لون عينيها البحريتين أو السمائيتين. أما السيارة الأخيرة فهي مخصصة لنقل الأطفال الخمسة إلى مدارسهم وحفلاتهم ونزهاتهم. لكن جهاد لا يتردد بأن يذكر أصدقاءه ومعارفه بأن هذه الأملاك والأموال هي ليست نطف أفرزها منصب والده لتنمو وتكبر وتدر عليهم ما هب ودب من النطف كلا معاذ الله، بل هي من عرق جبينه هو الذي يعمل من الساعة السابعة صباحاً حتى التاسعة مساء. يلهث كأي مواطن ليطعم أولاده ويجمع لهم قليلاً من المال يضمن لهم كرامتهم.

بعد مساهمته البناءة في مساندة الدولة والأخذ بيدها في دعم الاقتصاد الوطني، اكتشف جهاد فجأة أن الثقافة أيضاً بحاجة إلى قدراته وجهوده. واكتشف الآخرون فجأة أن جهاد يعشق المسرح ولديه هاجس لا يفارقه حتى أثناء نومه وهو تمويل عرض مسرحي ضخم. ثم ظهرت ميوله السينمائية أيضاً، فهرول إلى أهم مخرج سينمائي أفلامه ممنوعة كلها لـ" أسباب فنية" طبعاً، وطلب منه أن يكون عراب فيلمه القادم. واقترح عليه أن تكون فكرة الفيلم الأساسية هي جوع المواطن وفقره، القهر الذي يعانيه من الكبت، الغصة التي تخرش صوته المقموع. أن تكون فكرته هي الإهانة التي يشعر بها المواطن عندما يرى بأم عينه أمواله المسلوبة تنعم بها شريحة دون أخرى. أن يروي الفيلم سيرة رجل يعمل موظفاً وسائق تاكسي وعامل تنظيفات وخياطاً و"كهربجي" فقط ليسد جوع أسرته الكبيرة. فيلم يتحدث عن حاجتنا للتضامن والحوار لنحمي وطننا، وطن الشعب السوري الذي يتمتع منذ الأزل بجبهة

مرفوعة إلى السماء وبكرامة لا يقوى الشيطان بنفسه على التقليل من شأنها أو تحقيرها. لكن المخرج السينمائي الذي منعت كل أفلامه لا يمتلك جرأة جهاد وحماسه.

بعد أيام، ولدت لدى جهاد موهبة غنائية فتبنى أغنية وطنية تشيد بالمواقف الثابتة و"قلب العروبة" الفتي وتشتم الأعداء والأشرار فأنتجها وأشرف شخصياً على تصويرها في تدمر وبصرى وأفاميا والمدن الميتة في إدلب وقلعة حلب وقلعة المرقب والحصن وصلاح الدين. في طرطوس القديمة والجامع الأموي وسوق الحميدية وقلعة دمشق وكل الصروح البريئة تماماً مما يحدث.

ثم وأثناء مروره في شوارع دمشق التي يعشق، سمع بكاءها على نهر بردى الذي جف ومات من العطش والإهمال، فتبنى حملة لتنظيفه وتزيين ضفافه بالزهور والياسمين، وصارت دمشق تفح بعطر ساحر تمتصه خلايا الجسد فتتفتح بالحب والتسامح. وها هي الحياة جميلة ونظيفة والوطن ممتن للأموال التي أرهقت جهاد. هو الذي يفدي المواطن بروحه ودمه.

في تلك الزاوية تحديداً، أشرفت رواية "بتوش الحلوة" على الانتهاء، والسيجار الطويل فقد هيبته وصار رماداً رخيصاً وقعر فنجان القهوة ينضح بطحل لزج، والأروكاريا انحنت من شدة التعب. هناك، في تلك الزاوية تحديداً استنشق جهاد حفنة من الهواء، وقرر أن الانتقادات المغرضة لن تقتل حماسته لـ"المساهمة بازدهار الوطن وبتعزيز اللحمة الوطنية وبمساعدة المواطن على استرجاع حقه في العيش والعمل بكرامة وعفة". فالشعب السوري يتمتع منذ الأزل بجبهة مرفوعة إلى السماء وبكرامة لا يقوى الشيطان بنفسه على التقليل من شأنها أو تحقيرها.



التفصيل الرابع

فؤاد





الشمس اللئيمة تطرد كل غيمة عابرة. السيارة السوداء الأكثر لؤماً تمتص لهيبها وترميه دفعة واحدة على صلعة فؤاد، فيصبح رأسه كالمصفاة تعلوه قطرات العرق اللزجة. إشارة المرورمعطلة والناس يهجمون على الشارع كالوحوش المفترسة، يعبرونه دون الاكتراث بالسيارات أو بالشرطة أو حتى بحياتهم. تكييف السيارة معطل أيضاً وفؤاد لا يجرؤ على فتح الشبابيك. هذا الحر اللعين، سرق منه كل هيبته. القميص الأبيض المكوي بعناية، التصق بظهره وأصبح شفافاً من العرق. بنطاله الجديد صار بالياً من الزمن الطويل الذي أمضاه وراء مقود السيارة. أخرج من جيبه خرقة قماشية ووضعها على صلعته علّها تمتص الرطوبة وتحميه من الحر. فبدا رأسه "كقطرميز" المربى الفاخر مستطيلاً ومغطى بقماشة بيضاء محشوة بمربعات حمراء. وضع فؤاد يده على الزمور بثبات مغيظ. وصار الزمور يولول في الشارع العريض المكتظ بالناس. شعر فؤاد بالاختناق. شعر أن الشمس تحاصره والناس والشرطة والإشارة المعطلة والاجتماع الذي سيتأخر عنه حتماً. هذا هو الاجتماع الأول الذي يدعو إليه فؤاد في منصبه الجديد، فلم يمض سوى أسبوع على توليه مقاليد الإدارة في "هيئة مكافحة الفقر وتحسين المعيشة". عمل قبل ذلك في وزارة الإعلام، ثم صدر قرار بتعيين شخص آخر مكانه، فاحتار الوزير في أمره. قرر أن يرسله إلى هيئة الإذاعة والتلفزيون، ولم يمض

سوى بضعة أشهر حتى جاع الموظفون وأعلنوا احتجاجهم على المدير الجديد الذي أفلست شراهته المؤسسة. قرر الوزير بعد تلك الفضيحة أن يقدمه هدية لجريدة ما كخبير سياسي، لكن الصحف الرسمية، تغص بالخبراء والمحللين. ماذا لو عيّنه مراسلاً للتلفزيون الرسمي في بلد ما، فيرتاح منه إلى الأبد ؟ لكن العواصم العربية والعالمية تحتضن الكثير من المراسلين الذين فقدوا عملهم في الوطن، كما أن فؤاد في الخمسين من عمره، ولم يعد يصلح لعمل المراسل الشاق. أين سيذهب به ؟ إلى وزارة الخارجية ! نعم، سيتحدث مع الخارجية ويثني على قدرات فؤاد فيوظفونه كإداري أو مستشار أو أي شيء. وفعلاً صدر قرار تعيينه ديبلوماسياً في بلد عربي شقيق، وبعد أقل من سنة اعتقلت سلطات البلد الشقيق ابن السفير الذي كان عائداً إلى الوطن وفي جعبته أموال خزنة السفارة. لا مشكلة في ذلك، عاد فؤاد إلى وطنه الحنون رافعاً رأسه وفخوراً بابنه المغامر. رأى الوزير أن يدحشه بسرعة في وظيفة ما كي يتدارك تلك الفضيحة ويحمي سمعته وسمعة فؤاد الذي ذاع صيته في مجال السرقة. فالوطن يتغاضى عن حوادث السرقة التافهة أمام عظمة الأشخاص وقدراتهم البناءة وخبرتهم التي مضت سنوات وهم يغذونها. فاقترح عليه "هيئة الفقر"، بما أنها استحدثت منذ بضع سنوات، وبما أنها فقيرة بالأساس فلا يجد فيها ما يسرق.

لاتزال الشمس مصرة على إراقة العرق، والإشارات لا تزال معطلة والناس لا تزال تتزاحم على عبور الشارع، والشرطي لايزال واقفاً مكانه يتأمل الزحمة ولا يحرك ساكناً. الخرقة القماشية لاتزال متربعة صلعة فؤاد وقد ارتخت أطرافها من الابتلال، وباخ أحمرها الفاقع، وبدأت

تنزلق إلى الأمام فتغطي عينيه فيرفعها ثم تنزلق فيعيدها إلى مكانها في منتصف الصلعة بالضبط.

لمح فؤاد "هيئة مكافحة الفقر وتحسين المعيشة" من بعيد كالسراب تتمايل من شدة الحر، معالمها يكسوها الغبش. صار فؤاد يقترب قليلاً و"الهيئة" تخطو خطوة إلى الأمام، فؤاد يقترب وهي تخطو إلى الأمام هكذا إلى أن وصل أخيراً. هرول غسان إلى سيارة فؤاد بيك. فتح له الباب وساعده على النزول من مستنقع المياه العفنة الذي كان غارقاً فيه. نزل فؤاد ، حرك جسده المتثاقل، تخلص من ذلك الوهن، ارتدى سترته ليخفي البقع النتنة المتجمعة على ظهره. دخل إلى الهيئة فهرول غسان إلى المصعد، فتح بابه وودع فؤاد بيك متمنياً له يوماً مفعماً بالنشاط ومثقلاً بالنجاحات.

تسلل فؤاد من الباب الخلفي لمكتبه. جلس وراء طاولته. رنّ الجرس النحاسي المتخلف وأوعز باستدعاء أعضاء المكتب التنفيذي الذين طال انتظارهم للاجتماع الأول. لملموا أوراقهم، استعادوا أنفاسهم، رتبوا أفكارهم، تهافتوا بعزم مستجمعين كل طاقاتهم الفتاكة للاجتماع برئيسهم الجديد. طرقوا الباب بهدوء وتهذيب. لم يجب فؤاد ، فكان مشغولاً بمضغ قطع الشوكولا اليابسة في درج مكتبه ففوائد الشوكولا لا تخفى على أحد. أغلق الدرج بسرعة، احتسى قليلاً من الماء، إلا أن سواد الشوكولا كان متجمعاً على أسنانه الأمامية. طلب منهم بصوته الأجش أن يدخلوا ، فدخلوا . ابتسم فؤاد ولوح لهم بيده أن يجلسوا ، فبدا كالغريق الذي يطلب النجدة. المشكلة أن فؤاد طلب البارحة من غسان أن يشتري له وسادة يضعها على الكرسي فترتفع قامته قليلاً، إلا أن

الوسادة لم تجهز بعد. فلم يفلح أعضاء الهيئة التنفيذية بالتعرف إلا على رأس مديرهم الغارق في كرسيه. اتخذوا أماكنهم على المقاعد الستة المقابلة لمكتبه. شعر فؤاد برحيق الشوكولا المتجمع على أسنانه فأوعز إلى لسانه أن يبدأ عمله ويتخلص من تلك البقايا المزعجة.

طلب من غسان إحضار الشاي فهو يساعد على ترطيب الجسد في الصيف، والتخلص من الحر. أخرج من جاروره دفتراً كتب عليه ملاحظاته لهذا الاجتماع. فتحه بهدوء فبدا الدفتر موازياً لرأسه. " دونت هنا بعض الخطط لتطوير أداء الهيئة وأرغب طرحها عليكم لنتحاور بشأنها. فالحوار كما تعرفون هو أهم وسيلة للتطوير والمراجعة الذاتية، والنقد الذاتي، وكشف الفساد، ومكامن الضعف، وملامسة الخلل الذي أودى بهيئتنا إلى التراجع والتخلف ". هز الحاضرون رؤوسهم كإشارة على الموافقة والإعجاب بوعي المدير الجديد ورغبته بالتطوير والتحديث.

- " تندرج هذه الخطط في إطار رغبتنا الجماعية بالتغيير "، ثم توقف للحظة وكأنه اكتشف تفصيلاً جديداً للتو. رمق الأعضاء بنظرة تنم عن ذكاء خارق وقال لهم " هل تعلمون يا أعزائي أن فقراء العالم هم الأقدر على التغيير ؟ هل تعرفون أن أهم الثورات التي أدت إلى التغيير في العالم هي من صنع الفقراء ؟ فالقهر الذي يعيشه المعدم يفجر في روحه طاقات إلهية تدفعه للتصميم على تغيير الواقع الأسود والمر الذي يعيشه. وبما أن هيئتنا مختصة بأمور الفقر وتحسين المعيشة، علينا أن نستغل ذلك القهر المهين لنغير ونجدد العقلية التي تحكمنا. كما علينا ألا نستهين بقدرات الفقراء والكادحين على التغيير وأن نمسك بيدهم لنحقق هدفنا المشترك، التغيير. في المقابل، علينا أن نعي بأن الفقر هو

نقيض الحرية. فالفقير لا بد أن يعوز غيره وبالتالي يهبه حريته مقابل المال. فلكي نحقق الحرية علينا تحسين المعيشة."

رمقه الأعضاء بامتعاض وأسف على عقليته الثورية البالية.

- " بالعودة إلى موضوع اجتماعنا. سأتلو عليكم مقترحاتي. أولاً، أود أن أطلب من الجهات المختصة تزويدنا بمعلومات دقيقة عن واقع الفقر، كما يجب تزويدنا بأرقام واقعية عن نسبة الفقر. ثانياً، يجب على الجهات المختصة أن ترسل لنا خبراء أجانب نستفيد من خبرتهم في هذا المجال. ثالثاً، إخضاع العاملين في الهيئة إلى دورات تدريبية تعمق خبرتهم ومؤهلاتهم " امتصت الاقتراحات هذه غضب الأعضاء، إلا أن فكرة الدورات التأهيلية لم تعجبهم كثيراً. فهي تتطلب موازنة كبيرة وجهداً لا فائدة منه.

- " بالإضافة إلى كل تلك المتطلبات، نحن بحاجة إلى تخصيص فريق بأكمله مهمته الوحيدة هي ممارسة حوار صريح ومفتوح مع الشارع لملامسة مشاكله المتعلقة بالفقر والمعيشة. فالشارع أعزائي هو العمود الفقري للمجتمع والنظام والحياة السياسية والثقافية وغيرها. الشارع هوالرحم الذي ينجب حرية الإبداع، وديمقراطية الفكر."

خيم الصمت وارتجفت المقل وغصت الحناجر. ظنّ الأعضاء أن المدير الجديد مجنون أو أنه مبعوث من جهة ما ليورطهم ويودي بهم إلى المجهول. بدأ الهمس والغمز واللمز، وصار الأعضاء يتبادلون النظرات الغريبة، ثم هموا دفعة واحدة واعتذروا من المدير الجديد لأن الاجتماع طال والعمل لا يحتمل التأجيل. سمح لهم فؤاد بالانصراف فتطوير العمل له الأولوية في دفتر مشاريعه ومخططاته.

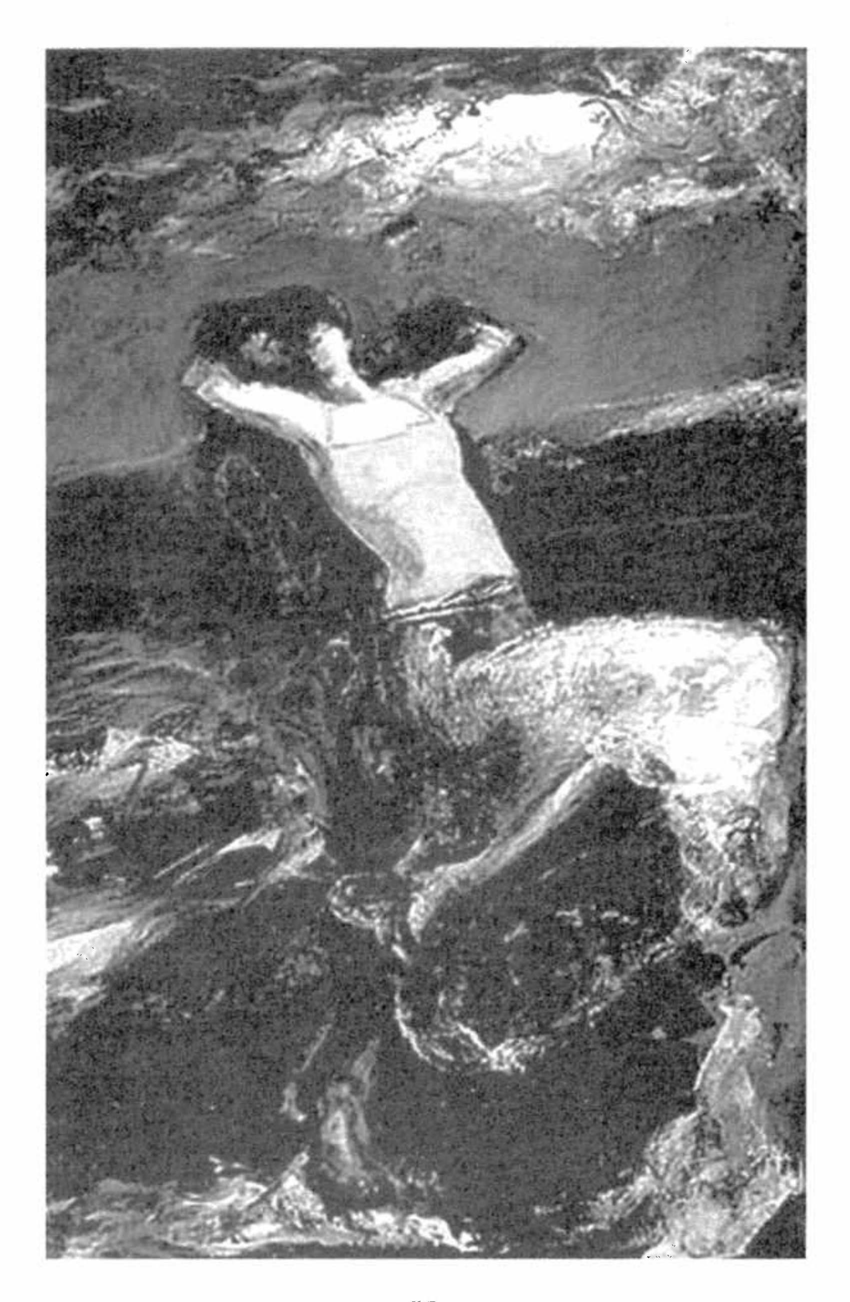
خرج الأعضاء بصمت من مكتبه والقلق يحفر ملامحهم. قرروا أن الموضوع في غاية الخطورة وعليهم أن يفعلوا المستحيل لينقذوا الهيئة من هذا المجنون، المختل، المراهق. كتب حسام البكري وهو عضو فعال في الهيئة، ولديه خبرة عظيمة في مجال الخروج من المآزق : " نحن أعضاء المكتب التنفيذي في هيئة مكافحة الفقر وتحسين المعيشة، نطالب بإقالة المدير الجديد نظراً لأعراض الجنون الجلية التي تخيم على مخططاته ومشاريعه. فالمدعو فؤاد حميدو كرر في اجتماعنا الأول كلمة "التغيير" عشر مرات، وكلمة "حرية" خمس مرات، وكلمة "ديمقراطية" مرتين. أما "التطوير والتحديث" فكانا المحرك الأساسي في خطابه. كما اتهم الشارع بأنه الرحم الذي ينجب الحرية والديمقراطية. وهو بذلك يدعو الشارع إلى الانقلاب وزرع الفتنة والمس بأمن الوطن والمواطن. بالإضافة إلى أنه ينوي التعاون مع الفقراء والمعدمين والكادحين لإشعال ثورة التغيير. نرجو من أعماق أعماقنا أن يكون السيد فؤاد حميدو مجنوناً ومختلاً فإن كان سليماً، ستكون عواقب فعلته هذه وخيمة فربما يكون جاسوساً أو مدسوساً أو متعاوناً على الأقل. نشكر لكم حرصكم على أمننا واستقرار بلدنا الجميلة، ونقدر أشد التقدير اهتمامكم بهمومنا".

في اليوم التالي، عاد فؤاد إلى منزله وربما لن يخرج منه بعد الآن. فالموضوع لم يعد يتعلق بالأمور المالية والفساد والسرقة، وإنما بأمن الوطن الذي هو أغلى من أي شيء.



التفصيل الخامس

حنان



ما أن يذكر اسمها حتى ترتسم على الوجوه ابتسامات تخفي في باطنها تفاصيل كثيرة، وتلتمع المقل بالغمز. إنها حنان. حنان الجذابة، ذات العينين العسليتين، والأنف الروسي المغرور، والشفتين الخمريتين، والقامة الطويلة، والجسد الممتلئ، والشعر الكستنائي الطويل.

حنان التي تعاشر كل الناس بالحميمية ذاتها والود نفسه. تعشق الصخب والضجيج. تمقت الطقوس والعادات المقدسة. زوجها تَلزمه ساعة كاملة في الصباح ليحتسي فنجان القهوة ويدخن أربع سجائر ويصغي لفيروز تغني من وراء الجدران. حنان تكره هذا الطقس الصباحي. تستيقظ في العاشرة، تشرب القهوة وتدخن بسرعة، تبحث في الراديو عن أغنية صاخبة، تدندن مع اللحن وتبدأ يومها الذي يشبه كل الأيام. أسامة يعمل في البيت، ونادراً ما يخرج في الصباح. يقرأ الصحف الرسمية الثلاث التي تصله فجراً، يتمعن في عناوينها، يتأمل مواضيع افتتاحياتها ثم يكتب مقالاً ويرسله إلى الجريدة. حنان لا تعنيها أخبار الدنيا ولا تقرأ الجرائد، لكنها تقول دائماً أنها تفضل جريدة "السفير" و"الحياة" و"النهار" لأن الصحف السورية تخدش الزجاج فنوعية الورق سيئة والحبر الرخيص يزيد الزجاج اتساخاً. كما أن الكلمات المتقاطعة في الصحف السورية ممجوجة ومكررة ولا تزيدها سوى جهلٍ.

يبدو هذا اليوم كغيره من الأيام. الشمس كعادتها مدت لسانها

وتمسكت بالأفق من ناحية الشرق وبدأت تتسلقه شيئاً فشيئاً إلى أن حملتها السماء الصيفية كعادتها ورمتها في منتصف صفحتها.

بالفعل بدا هذا الصباح كغيره من الصباحات. كل الصباحات منذ ظهور أول كائن حي على الأرض. فالعصافير خرجت من أعشاشها كقطيع لتعلن بداية يوم جديد. والرجال المتقاعدون الميسورون تهافتوا إلى الشارع بكثافة مخيفة لممارسة رياضة الصباح علهم يتخلصون من بعض الشحوم التي مضى زمن على تخزينها بعناية.

لا بد أن هذا الصباح كغيره من صباحات دمشق "التموزية". فشبابيك البيوت المتعبة من السهر الطويل لم تفتح بعد. والسيارات التي تبيع الغاز والفواكه والخضار والمحارم لم تضجر من الزعيق وحيدة في الشارع في هذه الساعة المبكرة دون أن تلمح أي امرأة تولول من شباكها لشراء جرة غاز أو لتفاصل على سعر كيلو البطاطا الذي يرتفع باستمرار دون رأفة أو حتى خجل.

وصولاً إلى كلمة خجل، كان هذا الصباح كغيره من الصباحات الدمشقية الرطبة. لكنه منذ هذه اللحظة لم يعد كذلك. فحنان على غير العادة، غادرت سريرها عند السابعة. لم تنظر إلى أسامة النائم كالأطفال بقربها. في الأحوال الطبيعية يكاد أسامة لا يبدو في سريرهما الواسع. قامته النحيلة والقصيرة تتكور تحت الملاءة فتبدو كواحدة من ثنياتها. لكن عندما تنام القامة الهزيلة هذه بعمق، تتحول إلى جثة لا روح فيها.

حتى الآن هذا الصباح يبدو طبيعياً حتى بالنسبة إلى أسامة الغارق بالنوم، فهو لم يعرف بعد أن حنان غادرت فراشهما في هذه الساعة المبكرة.

على غير العادة، انسلت حنان من سريرها عند السابعة تماماً. تمهلت في مشيتها كي لا توقظ أسامة. فتحت باب الشرفة. استنشقت رائحة الصباح الطازجة التي يحضرها الله بمزاج عندما يستيقظ كل يوم. دخلت إلى المطبخ. سكبت الماء في الركوة النحاسية. فهي تعشق طعم الصدأ. أشعلت الغاز. غلت الماء. وضعت ملعقتين من البن البرونزي المعجون بالهيل. بدأت الرغوة تطوف على السطح ولم يعد بإمكان حنان أن تلمح وجهها. وضعت فنجانها المفضل الذي كان أول تفصيل يحببها بالطقس. صار الفنجان هذا طقسها مع القهوة. خرجت إلى الشرفة الموازية لجبل "قاسيون" لتكون قريبة منه. قريبة من صباحه الذي يبدأ عادة في السابعة والربع. جلست على كرسي القش وبدأت تفكر بتلك التفاصيل وتتذوقها واحدة تلو الأخرى. تعشق تفصيلاً أكثر من الآخر فتتخيله من جديد. بيدها اليسرى تمسك فنجان القهوة وبإصبع يدها اليمنى تدور على أطراف الفنجان بهدوء وكأنها تعيش في خلايا زجاجه الدقيقة. تلمس حوافه بمتعة كبيرة. فكرت أنها تعشقه. ستموت إن لم يعد بوسعها رؤيته. تذكرت تفاصيل وجهه، صار الفنجان للحظات تلك التفاصيل. صارت تلمس حوافه وكأنها تمر على ملامح وجهه الدقيقة. على جبهته العريضة. إلى الأسفل قليلاً، تلمس عبسة حاجبيه الساحرة، تتدحرج بإصبعها أكثر فتصل إلى أنفه الطويل والعذب، ثم تسقط يدها من الخوف فتستقر على شفتيه المشققتين من كثرة ما يعضهما. هنا، عند مقطع شفتيه بالضبط، ترشف رشفة قهوة وتستعيد أنفاسها.

أسامة يعرف كل شيء. لكنه في كل مرة يقرر فيها أن يبوح بعذابه ويضع حداً لمراوغة حنان، يتذكر شخصيتها القوية وعينيها النمريتين

وصوتها الواثق. يخاف من المواجهة. يخاف أن يخسرها، أن يفقد متعة العيش معها. على الأقل هو يتمدد بقربها كل مساء. يستنشق زفيرها و ينام بطمأنينة. حنان لا تشبهه على الإطلاق، لكنه أدمنها. شخصيتها الجريئة ومبادراتها الحارة وقدرتها على التسلل إلى حياة الآخرين، ساعدت أسامة في عمله وحمته. علاقتها بجابر جعلت من أسامة أهم صحفي في جريدته. عندما يذهب إلى العمل الكل يتودد له ورئيس التحرير يستشيره بكل إجراء جديد أو تعديل ما، وأحياناً كان يستشيره حتى بألوان ملابسه أو بعلاقته بزوجته التي تحولت إلى طاولة بعد الولد السادس أو بالطريقة الأسلم لتربية الأطفال.

فجأة، شمت حنان رائحته تداعب أنفها الرفيع وتملأ تجويفاته. ليست مجرد رائحة. تذكرت عندما كانا يرقصان ذلك المساء محاطين بحشد من أناس يتصببون عرقاً وحباً. ذلك المساء، عبق أنفها بروائح أجساد كثيرة. برائحة الزفير التي تخرج من أنوفهم وأفواههم رطبة لزجة، تعشش في زوايا المكان وتسكنه هاجساً أبدياً. ذلك المساء، استطاعت حنان أن تميز رائحة زفيره، أحست بعشق يبلبل أوردتها، شعرت بأمان عظيم، وجدت للحظة أن هذه الرائحة هي انتماؤها لروحها وجسدها، انتماؤها لهذه الحياة الغريبة والقاسية أحياناً. استنشقتها وحفرتها في ذاكرتها وفي لفيفات دماغها فأصبحت تهجس بها كل يوم. أدمنتها ولم تعد تقوى على الإفلات من رغباتها وشغفها في أن تراه باستمرار.

فجابر لم يكن كقصي الصافي عجوزاً سمجاً. ولا كجعفر طه الذي تحول مع الوقت إلى ممسحة قذرة تستخدم في الأزمات. كما أنه لا يبدو ولا بأي شكل من الأشكال كعيسى خضر ذلك المتقاعد الذي لا ينفع إلا

للبكاء على أطلال عزته وسلطته التي خبا نورها. كان جابر شيئاً آخر. شاب مفعم بالحياة. لم يفقد بعد بريق عينيه الترابيتين. جاذبيته نادرة وفيها خصوصية كبيرة فهو ليس من الأشخاص المألوفين الذين نبحلق في وجوههم لساعات لنتذكر أين التقيناهم. صوته العالي ليس منفراً وضحكته الرقيعة ليست مبتذلة. لونه الأسمر يبدو كمزيج من الشوكولا اللزجة والحليب الطازج وحبة كستناء محمّرة وربما بضعة أعواد من القرفة. وجنتاه المزروعتان بشعر خفيف وناعم يبدو ظلالهما ساحراً خاصة في العتمة.

نظرت حنان من شرفتها إلى الزقاق الضيق والعتيق. إلى بلاطه الذي يعدّ أثرياً بعد أن رصفت معظم شوارع دمشق ببلاط زهري وأصفر فاقع ومبتذل. حافظ الزقاق هذا على بلاطه المرمري الفرنسي الأسود الذي إن ابتل تتجدد روحه وتفح من لمعانه رائحة التراب المعجون بماء المطر المالح. تدلت حنان بجسدها فوق زخرفات الدرابزين الطحيني. تأملت سيارتها الجديدة المركونة بالقرب من باب عمارتهم. لم تكن السيارة الحمراء الحديثة والباهظة الثمن تليق بالعمارة ذات الطراز الفرنسي القديم المزخرفة برؤوس حيوانات متوحشة كالنمر والأسد والثعلب الماكر.

تذكرت عندما كانا يرقصان ذلك المساء، محاطين بحشد من أناس يتصببون عرقاً وحباً. ذلك المساء، همست حنان في أذن جابر المنداة بالعرق والحب. قالت له إنها لم تعد قادرة على تحمل سماجة سائقي سيارات الأجرة الفضوليين منهم واللجوجين أو ممن يكتبون تقارير يومية عن آراء المواطنين المساكين، أو حتى العجزة الذين تنتفض شبوبيتهم

للحظات عندما يلمحون صبية جميلة. قالت إنها تموت غيرة من زوجته المدللة. همست في أذنه أنها تعشقه وأنه مختلف عن كل الرجال الذين عاشرتهم وأنها لا تفلح بإبعاد صورة جسده وملمس أصابعه الرقيق عن مخيلتها وأنها تريد سيارة، مجرد سيارة، وماذا تعني سيارة بالنسبة إليك يا جابر، لن تؤثر على ميزانيتك، لن تكلفك شيئاً، لن تخرب ترتيب رزم النقود المكدسة في خزانة أموالك.

هكذا كانت تجري الأمور دائماً، إلا أن جابر يعدّ حاتم الطائي إذا ما قارناه مع قصي الصافي ذلك العجوز الذي لا تفضي حماسته إلا إلى رزمة من الآلافات تشتري بها حنان ملابس وبعض الحلي الزائفة أو الحقيقة أحياناً. أما جعفر طه فكان يكتفي بمنحها الساعات الثمينة التي تهدى إليه أو أقلام "مونت بلان" المذهبة أو حتى المسبحات المصنوعة من اللؤلؤ الحقيقي أو المرصعة بألماس يبهر العين بلمعانه. أما عيسى خضر فهو حكاية أخرى. كان يشتري لحنان ملابس رخيصة ومبتذلة تشبه إلى حد بعيد بدلاته المزركشة القبيحة المصنوعة من قماش سميك وجلف الملمس. وحده جابر، كان سخياً بشكل مدهش. فإيجار بيت حنان وأسامة مدفوع لسنة كاملة. وخزانة ملابسها تختنق باستمرار بأجمل الفساتين وأثمنها. وصندوق مجوهراتها يغص بألوان فاتنة وبراقة. حتى جسدها صار مدللاً الآن فسيارتها الحمراء المركونة بجانب العمارة تنتظرها بكل حب.

اتصل بها أبو علاء البارحة. كان صوته متهدجاً من الرغبة. طلب منها اللحاق به إلى مكتبه. حنان لا تمانع عادة تلبية كل الدعوات. فالحياة بالنهاية هي هذه العلاقات المتعبة لكن المفيدة بالتأكيد. التقاها

أبو علاء صدفة عند صديقه قصي الصافي . حدث ذلك منذ سنتين في الخامس من حزيران. ومنذ ذلك اللقاء، لم يعد أبو علاء قادراً على الإمساك بخيط قوته وسلطته الطاغية دائماً. صارت حنان تقرر عنه مصير أصدقائه. تبعد فلاناً وتقرب فلاناً. تجعله يحقد على فلان وتحببه بفلان. وأبو علاء مستسلم تماماً لرغباتها. لكن الوضع الآن لم يعد كما كان عليه، فأبو علاء هو عدو جابر اللدود. وللمرة الأولى تجد حنان نفسها أمام خيار صعب: إما أبو علاء ذلك الستيني المحنك الذي إن صاحبته حنان تستمد منه طغيانه وتشارك في صنع القرار، أو جابر الجميل المثير المقرب المبعد الساحر القوي الهش وصفات أخرى تعجز أي نفس عن ذكرها. يبدو الخيار في غاية الصعوبة. فلكل واحد منهما طعمه الخاص. ولكل واحد منهما قوته الخاصة. فكرت حنان أنه في هذه الساعة المبكرة من النهار ليس عليها إلا أن تتأمل سيارتها الجديدة وذلك الزقاق العتيق المحفور بالأحلام. وتؤجل هذا القرار الثانوي إلى الليل عندما تندس في الفراش، وتتأمل العتمة وتفكر. أما زوجها الوديع الذي يتكوم كل مساء بالقرب منها كقطة أليفة، فسينظر إلى وجهها في العتمة ويشكر الرب الذي تَذكره بهذه الامرأة العظيمة والمضحية.

التفصيل السادس

سميح



شخير السيارات يصمّ الروح. الازدحام يشتت التركيز. الفوضى تزأر بشراسة. وسميح يفتش وسط هذا المزيج الغريب من الناس والسيارت والشاحنات عن فريسة يحاورها بأمور الحياة. مضى زمن وسميح يفتش دون جدوى، فالناس جائعة ولم تعد تقوى على ركوب سيارة أجرة ودفع خمسين ليرة قابلة للتورم بسبب الازدحام. وجوع الناس يعني بالتأكيد جوع سميح، فشبعه قائم على هموم الناس والحديث عنها والاستفادة منها إلى الحد الأقصى عامة.

في الأحوال الطبيعية، يخرج سميح في السابعة صباحاً، ساعة خروج الموظفين من بيوتهم إلى الدوائر الحكومية. وفي اليوم الذي يستجيب الله لدعوات أمه المستمرة، يعود سميح مساء إلى البيت وفي جيب سترته قصص مثيرة وشتائم تودي بصاحبها إلى المجهول ونبض متقد هو نبض الشارع كما يصفه سميح.

" في الثلاثين من عمري، غير متزوج، أعيش وحيداً مع الماما، أختي الوحيدة متزوجة من ضابط صغير وتسكن في منطقة من مناطق السكن العشوائي. توفي البابا في حادث سير على طريق جبلة دمشق. اشتريت سيارة الأجرة هذه لأحفظ كرامة الماما وأحميها من العوز ". هذه السيرة الذاتية التي كان سميح يكررها على مسامع ركابه عشرات المرات في اليوم الواحد.

أما السيرة الذاتية لـ " هاجَر" سيارة سميح فهي حكاية أخرى. المقاعد الجلدية يكسوها صوف الخاروف الحار. دالية عنب اصطناعية تتدلى من سقف السيارة، عناقيدها الحمراء والصفراء تتأرجح فوق رؤوس الركاب. في مقدمة السيارة، إطار ذهبي مزين بالياسمين الاصطناعي، يحمل صورة سميح وهو يتسلم الميدالية الفضية في "مهرجان الشبيبة" في مدينة جبلة التابعة لمحافظة طرطوس. على المرآة الأمامية، عصفور صغير ريشه متسخ وباهت يغرد مع كل فرام قوي. أضواء فظة تخرج من زوايا السيارة الأربع، تقلع العين بفجاجتها وتذيب فروة الرأس من الحرارة التي تزفرها. مقود السيارة يبدو كإكليل يختنق بأنواع غريبة ونادرة من الأزهار. هذه المواصفات كانت ذروة الجمال بالنسبة إلى سميح. فهو يعشق سيارته الصفراء ويدللها باستمرار. يكتب عليها عبارات غزل وغرام مثل " لا تلحقني مخطوبة " أو "الأميرة هاجَر " أو حتى " لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار ".

يعدّ سميح من الأشخاص الجذابين أو المتميزين على أقل تقدير. عيناه الداكنتان تطفوعلى سطحهما باستمرار بركة صغيرة من الدموع. أنفه الطويل تزيده العظمة البارزة في أعلاه وقاراً. أسنانه الصفراء من سجائر الحمراء الطويلة ومن " المتة " ومن الإهمال متباعدة بإصرار كبير. قفصه الصدري ضامر إلى حد الالتصاق بظهره. طويل القامة. شعره قصير في مقدمة الرأس وطويل من الخلف ما يبرز رأسه المسطح والمستقيم.

أخيراً، وجد سميح رجلاً يلوح له من بعيد. في منتصف الأربعينات. القهر يرسم على وجهه خطوطاً تنم عن كهولة مبكرة. يرتدي سترة عتيقة،

لونها كالح تملؤها الرقع. بنطاله مقوس عند الركبة، وعريض عند الخصر وممزق من الأسفل. حذاؤه المغبرّ مفتوح على مصراعيه من الأمام وكأنه يضحك على مآله. ركب هذا الرجل إلى جانب سميح وطلب منه التوجه إلى حرستا. رفع سميح كتفيه بطريقة لا تخلو من الزهو، وشمّر عن زنديه فظهر وشم على شكل خنجر محفور على ساعده وإلى جانبه كلمة: " بحبك ".

نظر سميح إلى الرجل والريبة تثب من عينيه.

- يبدو أنك موظف في مكان قريب، وهربت باكراً لأنك متعب أو مكتئب ؟

- كلا.

- إذاً لا بد أنك تسكن في مكان قريب وعملك في حرستا لكنك تأخرت في الذهاب إلى العمل لأنك متعب أو مكتئب ؟

- كلا.

- إذاً ما بك يا أخي ؟ لماذا هموم الدنيا بأسرها تبدو بوضوح على وجهك ؟

- لقد توفيت أمي البارحة فأتيت إلى هنا لآخذ إذن وفاة حتى نصلّي على روحها صباح الغد وندفنها.

- حقاً، وهل الموت أيضاً يحتاج إلى إذن ؟ قال سميح جملته هذه بسخرية كبيرة حتى أنه هو تعجب من قدراته الاستعراضية. ثم تابع حديثه معجباً بنفسه : " يا أخي أنا شخصياً لم أعد أفهم ما يجري في هذا البلد. إن عشت يجب أن تأخذ إذناً وإن مت أيضاً، إن تزوجت وإن انفصلت، إن أنجبت وإن أجهضت. إن بعت وإن اشتريت، إن توظفت وإن فصلت من عملك. أمر عجيب. الوضع لم يعد يطاق."

لاذ الرجل بالصمت ولم يهز رأسه حتى. نظر سميح إليه وسأله بكل جدية : "هل توفيت الوالدة بشكل طبيعي أم أنها تعرضت لأزمة قلبية؟".

- جلطة. توفيت في الليل وعندما استيقظنا صباحاً وجدناها جثة باردة ممدة وسط السرير.

- لا إله إلا الله. رحمة الله عليها. يرحمها ويرحمنا أجمعين. اغفر لي إلحاحي يا أخي، لكن من وجهة نظري إن والدتك توفيت من الضغط الذي يحاصرها طوال النهار. لا أشك في أن والدتك تبلع غصتها كل مساء وتنام بصمت. ولا تقل لي أنها كانت مرتاحة. فمن منا مرتاح يا رجل. أنا واثق من أن راتبك وراتب إخوتك إن كان لديك إخوة لن يكفي مراسم الدفن وطقوس العزاء. الوضع لم يعد يطاق يا رجل.

لم يبد الرجل أي ردة فعل. فسأله سميح : " أليس كذلك ؟ "

- في الحقيقة أمي لم تر يوماً حلواً منذ وفاة والدي فهي سكنت في بيتنا ولم تنسجم مع زوجتي. فكانت باستمرار تطلب مني أن أدخلها إلى مأوى العجزة.

- طبعاً، وكيف لك أن تدخلها إلى مأوى العجزة. فمصروفه كبير أولاً، وهو مهين ثانياً. لأن مسؤولي بلدك لم يكلفوا خاطرهم بتأمين مكان مريح وجميل للعجزة. فالمسنون بحاجة إلى طبيعة خلابة، ونشاطات من نوع خاص وطعام مغذ ولذيذ. ألا توافقني ؟

- نعم بالتأكيد. لكنني لم أدخلها إلى المأوى لأسباب عاطفية بحتة. فأنا شديد التعلق بها ولا أقوى على رميها بالمجانية هذه.

- عفواً أخي، لكن حسب علم النفس أنت لم تقل كلمة " رميها "

هكذا بالصدفة. إذاً أنت تعترف بأن مأوى العجزة في بلادنا هو بمثابة رمية. هز الرجل رأسه بشكل حيادي. لكن زمن مضى وسميح يفتش عن فريسة ما.

نظر سميح إلى الرجل نظرة تفيض بالشفقة واللؤم، وقال له : " إن كانت والدتك ماتت هماً على فراق والدك فلا تحاول إقناعي بأن والدك توفي بشكل طبيعي. لا بد أنه كان رجلاً بائساً تملؤه الهموم العنيدة ".

هز الرجل رأسه موافقاً سميح. لكنه أضاف : بصراحة مرت أربع سنوات ووالدي يصارع ذلك المرض الله يبعدنا عنه.

فرفع سميح حاجبيه متعجباً وقال : " يا أخي اعذرني على مقاطعتي لحديثك لكنني لا أفهم مثلاً كيف استطاع والدك تحمل المرض أربعة أعوام بطولها. لا تؤاخذني أرجوك لكن إن كنا نحن الأصحاء لسنا متمسكين بهذه الحياة الظالمة فكيف بشخص مريض ".

بدا الامتعاض جلياً على وجه الرجل الذي ملّ ربما من إلحاح سميح خاصة وأن والدته قد توفيت البارحة وما تزال جثتها في براد مستشفى حرستا، كما أن إكرام الميت دفنه. لكن سميح لم يتردد لحظة واحدة في إكمال عمله الذي يعيش منه هو وأهله. رفع يده في الهواء فلمس دون قصد العصفور المعلق على المرآة الأمامية، فصاح العصفور مغرداً بصوت فج ومزعج. ثم هبطت يد سميح دون سابق إنذار على كتف الرجل المسكين فارتجفت روحه الشاردة بالموت والوحشة. نظر الرجل إلى سميح متسائلاً عن هذه المبادرة الفجائية، فتابع سميح حديثه كأن شيئاً لم يكن : " أنا أعمل سائق تاكسي منذ ثلاث سنوات والراديو هو وسيلتي الوحيدة للتواصل مع العالم. وأنا تعجبت مرة من برنامج تبثه إذاعة "

سوا " يسمونه " إنت وصحتك". وسمعتهم يقولون إن المرض الذي أصيب به والدك الله يجيرنا منه، أعني من المرض وليس من والدك، موجود في كل الأجسام لكنه لا يظهر إلا بسبب نقص المناعة. وأن نقص المناعة كما تعرف يحدث بسبب الزعل والهم والكوارث. ما أردت قوله باختصار هو أن والدك رحمه الله وأنزله فسيح جناته أصيب بالمرض بسبب الهم والغم والفقر ربما والقهر واليأس والبأس فهبطت مناعة جسده فحصل ما حصل".

بدا أن كلام سميح زاد الرجل هماً فلم يجد إلا السكوت. كانت هذه من المرات النادرة التي يواجه بها سميح صعوبة كبيرة بالتسلل إلى قلب زبونه ونبش الهموم العالقة على شرايينه كدودة القز. لكنه لن يستسلم فأمه تنتظر في البيت والبيت لم يعد عامراً كما كان منذ أشهر. فالناس جائعة ولم تعد تقوى على ركوب سيارة أجرة ودفع خمسين ليرة قابلة للتورم بسبب الازدحام.

نظر إلى الرجل وسأل بكل برود : "هل تعلم أنني لا أطيق الراديو لكنني مضطر يا أخي كما قلت لك منذ قليل للاستماع إليه فهو نافذتي الوحيدة على الدنيا. لكن وبصراحة أنا لا أطيق " إذاعة دمشق". أكره المذيعين الأغبياء الذين ينتمون إلى العصر الحجري. كما تضجرني الأغاني العتيقة التي انقرضت وباخ ألقها. يا أخي حتى نشرات الأخبار كاذبة وملفقة. ألا توافقني الرأي؟ ". فقال له الرجل : " يا أخي أوافقك على كل شيء. لكن أرجوك أن تسرع قليلاً فأنا مستعجل ". شمّر سميح عن كمه من جديد وداس على البنزين فانطلقت السيارة بكل طاقتها وأخذ العصفور "يولول" من عزم السرعة. لكنه لن يستسلم. لا العصفور

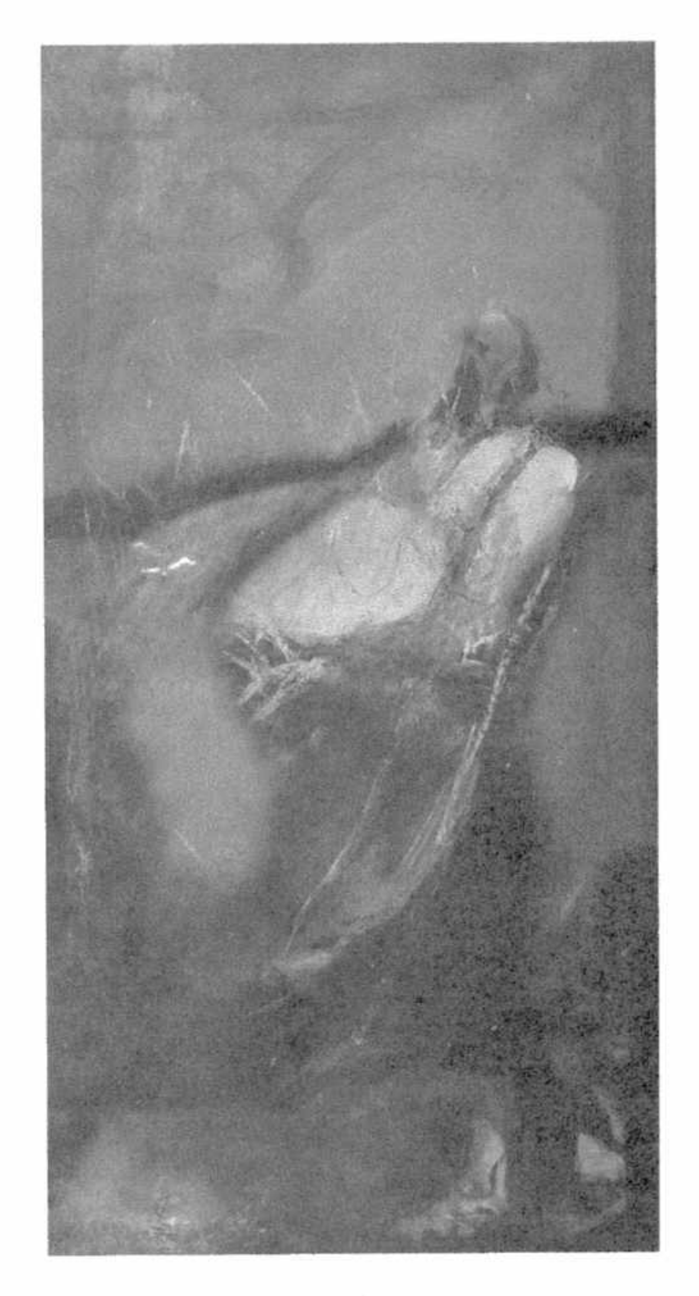
سيستسلم ولا سميح. تابع بكل جدية :" أما "إذاعة سوا" فهي موضوع آخر. يا أخي نشرات الأخبار التي تبثها محترمة وتعبر عن نبض الشارع. تحكي صراحة عن القمع الذي نتعرض له بشكل يومي. كما تلاحق دون كلل أخبار السجناء المساكين. طبعاً أنت تعرف أنها تابعة لتلفزيون "الحرة". حتى التلفزيون محترم وموضوعي. لا تؤاخذني على التطفل، أعرف جيداً أن أمك توفيت وأنكم مشغولون بمراسم الدفن والعزاء. لكنني كما أذكر أمك توفيت البارحة أي يوم السبت. أما يوم الجمعة فكانت معكم بالتأكيد. هل كنتم تشاهدون قناة "الحرة" بالصدفة؟". فرفع الرجل رأسه إلى الأعلى. تابع سميح : "أما أنا فكنت جالساً مع أمي يرحم أمك ويرحمنا جميعاً، وكنا نشاهد "الحرة". كان هناك برنامج يضم معارضاً سورياً وآخر موالياً. هل ترى الموضوعية ؟ معارض وموالٍ. يا أخي بصراحة المعارض كان مقنعاً أكثر بكثير من الموالي. المعارض يمتلك حججاً ومنطقاً بينما الموالي كان فضيحة حقيقية، أو كارثة إن شئت. كالببغاء راح يردد الشعارات التي تعلمها وحفظها عن ظهر قلب. وتقول لي إن أباك مات وأمك أيضاً، يا أخي أنا شخصياً أحسد الميت في هذه الأيام. على الأقل يرتاح من وجع القلب. يرتاح من سماع هذا الببغاء التافه".

وافقه الرجل تماماً، وافقه على كل كلمة يتفوه بها شرط أن يسرع قليلاً فأمه تنتظر وحيدة في البراد.

التفصيل السابع

عمر





" صباح الخير يا وطني، صباح الخير أيها الشعب الباسل. من "إذاعة دمشق" نفتتح إرسالنا بالنشيد العربي السوري ثم بآيات من ذكره الحكيم".

غنّى عمر النشيد العربي السوري، نشيد وطنه، ثم تغنّى بالآيات القرآنية التي انتقتها الإذاعة. ضلّ النوم طريقه إلى عمر الليلة الفائتة. فعمر يستيقظ عادة مع صلاة الفجر، يؤدي واجبه الديني، ثم ينام من جديد. إلا أنه لم ينم اليوم. القلق أيقظه بعد منتصف الليل ودفعه إلى النهوض، لينتظر الصباح. لينتظر افتتاح جامعه، "جامع المعتصم بالله". كلفة بنائه ترهق الروح، لكنها لا تعادل سوى قطرة واحدة من فيض أمواله، و لا تساوي شيئاً أمام سعادة عمر. من الرخام الإيطالي الثمين، لا تعكر نقاءه سوى تعرجات المرمر الممتزجة ببياضه، جدرانه محفورة بالآيات القرآنية المرسومة بماء الذهب "يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم لعلكم تفلحون ". قبته الفسيفسائية لا تشبه القبب التقليدية، مرصعة بالذهب، و شفافة من جهة القبلة فتشرّع لضوء الصباح تقبيل ساحة الجامع الداخلية. استغرق بناؤه ثلاث سنوات من المراوغة. فبناء جامع ليس بالأمر الهين.

عمر كان واحداً من تلامذة الشيخ محمد بلوط، وكان من المفضلين إلى روحه. علاقتهما تجاوزت طقوس العبادة والدروس الدينية في الجامع

الذي يمتلكه الشيخ. خاصة وأن عمر تزوج بعدها بفاطمة ابنة محمد. وصاهر بذلك الشيخ ومذهبه الديني وجامِعَه الذي تحول في غضون سنوات إلى مركز للدراسات الإسلامية يرتاده عدد ضخم من الرجال والنساء والأطفال. إلا أن عمر ابتعد عن حميه في الفترة الأخيرة، وفضل الاستقلال عن مذهبه وفكره.

حافظ عمر على سكونه، متجاهلاً نبضات فؤاده التي كادت تنفجر حمماً من قفصه الصدري من عزم طاقتها واتقادها. شعر أن دهراً يفصله عن الصباح. فكر أنه سيذهب إلى هناك قبل صلاة الظهر موعد افتتاح الجامع. سيتأمل حلمه الذي أنجز بصعوبة بالغة، سيشرف على التحضيرات النهائية لاستقبال مئة رجل من أخيار البلد ومسؤوليه وتجّاره وأعمدته، وأساساته ودعاماته. دمشق كلها مدعوة لتشاركه فرحته، لا بل ومحافظاتها أيضاً. أفخم الفنادق ستعج اليوم بأولئك الذين تكبدوا عناء السفر ليحضروا اليوم الجمعة. وستزدحم محلات الزهور وتنشغل برمتها بتجهيز أكاليل ضخمة تناسب الحدث العظيم. وستختنق صفحات الجرائد الأولى بخبر افتتاح الجامع. وستغص اللوحات الإعلانية في كل أنحاء العاصمة السورية بصورة الجامع وإلى جانبه صورة صاحبه الذي صار مشهوراً بعد فوزه في الانتخابات البرلمانية. صاحبنا الذي كلفته مضافة الانتخابات ملايين الليرات، بين لوحات إعلانية ويافطات خططت عليها وعود عمر ومشاريعه إن ربح كرسياً في مجلس الشعب. بين مناسف الفريكة المعجونة بالسمن العربي واللحم الحلال والدسَم، والحلويات الشرقية الفاخرة. بين الزينة المبتهجة التي لونت مضافته، وكتب القرآن الصغيرة والمذهّبة التي وزعت على الشعب لينتخبه نائباً

عنه، متحدثاً باسمه، مجسداً همومه ومآسيه. الشعب الذي سيفتخر اليوم بعمر البار وبجامعه العظيم.

دخل عمر إلى مكتبه الذي بناه في حديقة منزلهم واضطر يومها لدفع مليون ليرة للبلدية لتسمح له بتجاوز القانون. لكنه استأذن ربه قبلها فـ " الراشي والمرتشي في النار". فتح جارور المكتب وأخرج الكلمة التي سيتلوها اليوم. أعاد قراءتها بتأنٍ واستبدل بعض المفردات وعدّل صياغة بعض الجمل. لغته الفصيحة التي استمدها من حفظه للقرآن الكريم وللأحاديث الشريفة تبهر السامع. وشخصيته قيادية بامتياز. يتحدث بثقة كبيرة وبإحكام مخيف. هذا ما دفع الفضائيات العربية لاستضافته في برامجها ونشرات أخبارها للإدلاء برأيه بحدث ما. قيل أنه متحدث باسم وكالة الأنباء الرسمية، وقيل أيضاً أنه مدسوس ليعطي الانطباع بأن هامش الحرية واحترام الرأي الآخر قد اتسع. فهو غالباً ما يتحدث بلهجة ساخرة وبجرأة تثير التحفظ.

" بسم الله الرحمن الرحيم. إخوتي، أعزائي، أصدقائي : (إنما يَعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين. صدق الله العظيم). و(إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما. صدق الله العظيم). ما كنت لأنعم بهذه الهبة الكريمة، لو لا حضوركم الكريم والثمين. إنني إذ أشهد اليوم افتتاح هذا الجامع المتواضع، أنتظر أن يكون بإذن الله عز وجل ملاذاً لإيمانكم، وبلسماً لجراحكم، ومبعثاً لاطمئنانكم. إنني إذ أشهد اليوم هذا الحدث العظيم، أفتخر بتراب

وطني ذي القلب الكبير والتسامح العظيم والعقل الحكيم. وطني الذي يحتضن الديانات السماوية بحسن تقدير. وطني الذي جرت على أرضه معركتا "ميسلون" و"حطين". وطننا يا إخوتي جار عليه الزمن، لكنه أبى الانحناء أمام مشروع الإمبريالية. بنيت هذا الجامع ليكون جامعكم، جامع شعبنا النبيل. ليكون منبراً لمواجهة العدو بسلاح الإيمان بالله وباليوم الآخر. بسلاح المقاومة حتى الموت. (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. صدق الله العظيم). ألم يكن الجامع هو المحرض الأقوى لإخواننا في العراق ليرموا العدو في الجحيم ؟ ألم يكن الجهاد في سبيل الله هو السلاح الفتاك لنبذ المشركين وزجهم في الهلاك؟ ألم يلجأ إخواننا للجامع بعد سقوط بغداد، إخواننا السوريون الذين استجابوا لندائنا وسافروا إلى العراق ليجاهدوا ويدافعوا عن أرض إخوانهم وأشقائهم العراقيين ؟ ألم ندخل عصر العولمة المقيت ؟ أليس الإيمان بالله وباليوم الآخر هو الوسيلة الأنجع لتحقيق أهدافنا وتحرير أراضينا المغتصبة، وإرساء مبادئ العدل والمساواة. فكما قال رسول الله محمّد صلى الله عليه وسلّم (الناس سواسية كأسنان المشط، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). عندما تحارب أميركا الإسلام، دين التسامح، صدقوني يا إخواني إنما هي تحارب الله و(للذين كفروا بربهم من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم وبئس المصير.)".

تصفيق حماسي ضرب جدران الجامع العالية وخلّف دوياً آسراً. ابتلع عمر قليلاً من الماء ومسح جبينه بمنديل قماشي أبيض ومزخرف

بورود حمراء. يرافقه المنديل هذا أينما ذهب فهو يتصبب عرقاً باستمرار، وتصبح وجنتاه بلون الشوندر، وتغور عيناه البنيتان وتدمعان، وتجف شفتاه ويبهت لونهما، وقامته القصيرة تتكور على نفسها وتنتفخ من ضغط الدم فيبدو وكأنه ينازع أو يحتضر. استطاع عمر أن يتلصص من وراء عدستي نظارته الطبية على محافظ المدينة وهو يكاد يطير من شدة التصفيق وخصل شعره التي يلصقها بإحكام على صلعته تتطاير هي أيضاً من عزم الاهتزاز. أما رئيس البلدية فكان مشغولاً برفع سحاب بنطاله الذي علق بقماش البطانة الرخيص.

" إخواني، أعزائي، أصدقائي... من منكم لا يشعر بالمخاطر المحدقة ؟ من منكم لا يحلم بردّ الظلم عن شعوبنا المقهورة؟ من منكم لا ينتظر بفارغ الصبر يوم القيامة لينال المشركون عقابهم عند ربهم رب السموات والأرض. (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد. فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين. ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين. صدق الله العظيم). (يا أيها الذين آمنوا لما تقولون ما لا تفعلون. إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)".

علا التصفيق ولاتزال مشكلة السحاب عالقة. ولايزال المحافظ يصفق بكل ما آتاه الله من قوة. أما موفد الأوقاف فأيقظه التصفيق فانضم بسرعة إلى المصفقين بانفعال لا يخلو من المبالغة ليدافع عن غفوته وليتأكد أن أحداً لم ينتبه. عمر يجفف عرقه بالمنديل الذي صار

لونه داكناً من كثرة ما ابتل، ويشرب الماء ويتنفس بصعوبة فالازدحام ابتلع الأوكسجين والعرق المتصبب تبخر عن غيمة مفعمة بالرطوبة المالحة.

" إخواني، أعزائي، أصدقائي... قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : " من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى له الله بيتاً في الجنة ". وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها ". أيها الرفاق، رفاقي في الدين والإيمان بالله عز وجل أشكر كل من ساهم في إنجاز هذا الجامع. إنني ممتن لجهودكم البنّاءة التي ساهمت وتساهم ببناء نهضة أمتنا وحضارتها، الحضارة الإسلامية. أدعوكم جميعاً للاستماع إلى آيات من ذكره الحكيم، يتلوها على مسامعكم سماحة الشيخ عبد الله الشاكر. "

جرجر عمر جسده وهو يتمايل وكأن الكلمة أسكرته. اتجه إلى كرسيه وجلس بثقل. المحافظ إلى يمينه ورئيس البلدية إلى يساره وموفد الأوقاف يجلس وراءه تماماً وعيناه المنتفختان تعطيان الانطباع أنه استيقظ للتو بعد غفوة طويلة. وليدافع مرة أخرى عن غفوته، هوى بكفه الغليظة على كتف عمر وعضّ عليها وأغمض عينيه وزمّ شفتيه إشارة عن فخره بعمر وإعجابه بذلك الخطاب.

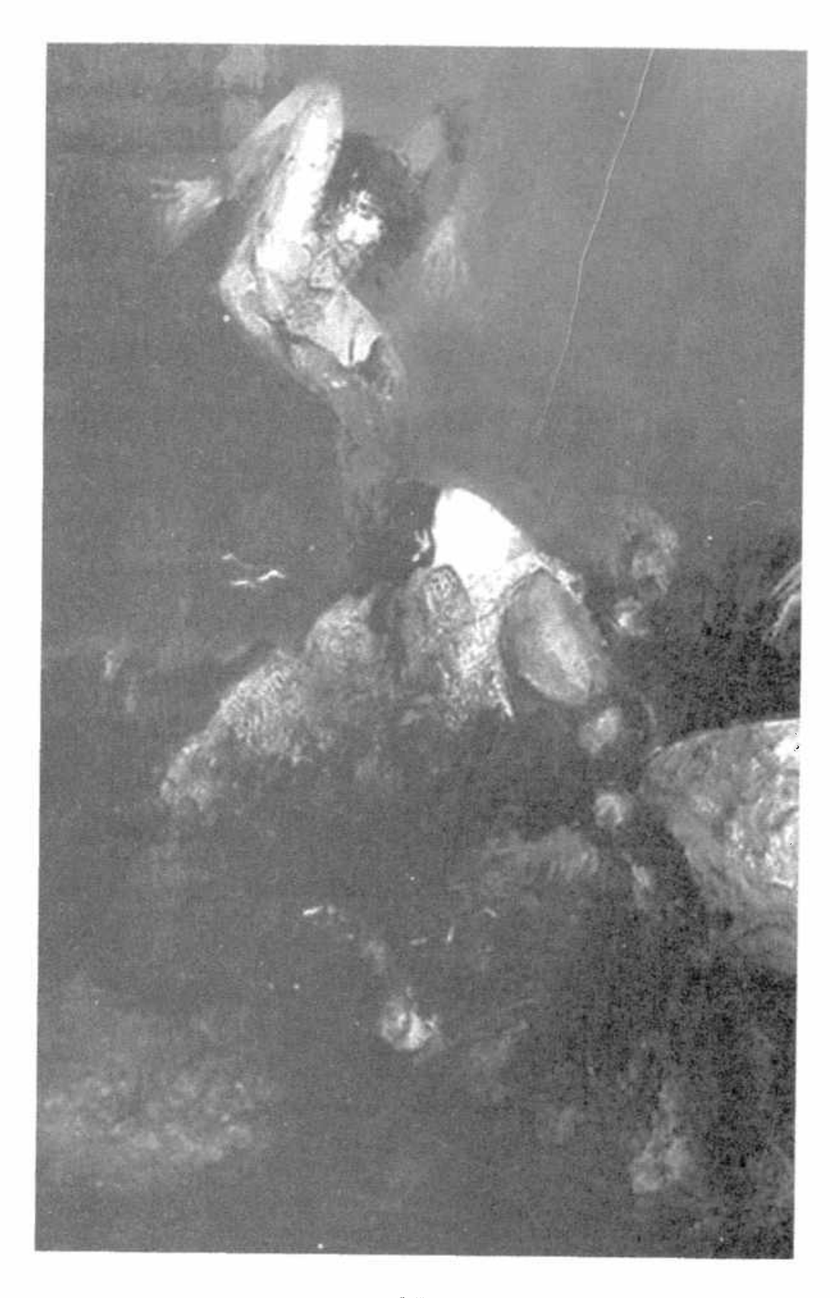
من زاوية المسجد الغربية، ظهر عبدو ابن عمر البكر مهرولاً ووجهه الكموني باهت ومندّى بعرق بارد. لوح لأبيه من بعيد، وأشار له بيده أن يأتي بسرعة. اعتذر عمر من المحافظ ومن رئيس البلدية الذي لم ينته بعد من مشكلة السّحاب، وركض إلى عبدو حانياً ظهره كي لا يفسد على المدعوين متعة الفرجة. أمسكه عبدو من يده وخرج به إلى البهو. نظر عمر إلى ابنه نظرة تفيض عتاباً على مقاطعته لتلاوة الشيخ وإحراج

أبيه بهذا الإلحاح. لكن عبدو لم يكترث لهذا العتب. ضحكت عيناه وهمس في أذن أبيه أن السيد قاسم عبدول وكيل سيارات " هامر" الأميركية ينتظر في الخارج. وأنه أحضر معه السيارة السوداء التي اشتراها عمر منذ أسبوع ولم تكن جاهزة بعد، ليفاجئه بها في هذه المناسبة الخاصة.

التفصيل الثامن

سهر





كعادتها كل صباح خميس، تفتح سهر شباك غرفتها وتبدأ بالتهام شبابيك الجيران. تتسلل بخيالها عبر الستائر لتتأمل حيوات لا تعيشها. تسرقها غواية الفرجة وتضيف إلى ذاكرتها المقحمة بالخيال قصصاً جديدة. قد يكون مشهد الشباك هو الزاوية الوحيدة التي تمتلكها سهر في البيت. البيت الذي ألفته ربما أكثر بكثير مما ألفت زوجها محمود. اعتادت جدرانه وتفاصيله الدقيقة. حتى البلاط طُبع في ذاكرتها كصفحة رخامية ناصعة متآكلة من بعض الأطراف. تستطيع سهر إغماض عينيها الخضراوين ورسم انحناءات البني على الرخام الأبيض. حتى الأثاث المتواضع، تصفه ببراعة ودقة دون أن يفوتها الحديث عن زوايا الكنبة الصغيرة بقرب الشباك التي بهتت ألوانها بعد سنة من ارتخاء محمود فوقها كل مساء.

شغفها بمراكمة تفاصيل حياتية، خلق في روحها هماً لا تقل أهميته عن أي هم فكري أو وطني. يتحرك الهم هذا في شرايينها كل صباح خميس. تجرّ جسدها النحيل والمتناسق بكل جدية إلى الشباك، تفتحه، تنكب بكل طاقتها على التفرج والتأمل حتى الظهيرة. تكرّس حواسها لدخول عوالم تجهلها، لتغرف المزيد من أدق التفاصيل. تشم رائحة الطعام التي تنسل إلى شباكها كغيمة شفافة. تتنفس رائحة النوم التي تطردها النساء عبر فتح النوافذ. تشهق رائحة الأجسام التي اختمرت من

الغفوة الطويلة. تلمح جارهم الذي يمر كل صباح ليبيع الحليب ويختفي في المناسبات الوطنية ليبيع الصور واللافتات والأعلام والزينة. تلمحه صباحاً وهو يحتسي القهوة مع زوجته. شعره الكثيف لا تزال آثار الوسادة مطبوعة على بياضه المائل إلى الأحمر من الصباغ. ووجهه الريان بالدم، لا يزال مجعداً. وكرشه يزداد انتفاخاً كل يوم.

تضحك سهر في سرها، ثم تخاف أن يعاقبها الله ويحول محمود بعد عدة سنوات إلى مجرد كرش محشو بالدهون والشحم. ذاكرتها تستحضر جسده وتجبره أن يلبس كرشاً فقط لترى إن كان يناسبه. في الواقع لا يليق به على الإطلاق. فمحمود ليس قصيراً فحسب وإنما جسده مترهل ويكسوه شعر أسود خشن حتى إن تعرّى يبدو وكأنه يلبس كنزة صوفية سوداء. هو يدرك جيداً أنها أجمل منه. جسدها الغض متناسق إلى حد كبير. قوامها الطويل والممشوق يسحر المقل. وفمها كحبة الكرز كما تصفه أم محمود. عيناها اللوزيتان كقطرة المطر أخضرهما شفاف وعذب. بشرتها البيضاء مشدودة وملساء وصافية لا يعكرها أي ترهل أو دكون.

رغم اتساع عينيها، لم تفلح سهر يوماً بالنظر إلى جسد جارتها سمية دفعة واحدة. فبؤبؤا عينيها لا يتسعان لجسمها الممتلئ بكليته، وإنما لنصفه الأيمن أو الأيسر.

كعادتها كل خميس، تحديداً عند منتصف النهار، تتمايل سمية بردائها الأسود الطويل الذي يخفي تحت حريره جسداً أسمر يعج بالثنيات والحكايا، تصعد الدرج الطويل والمتعب، ترن جرس الباب، تدخل كعاصفة هوجاء إلى بيت سهر. ما أن ترن سمية الجرس حتى تبدأ بفك

أزرار ردائها الأسود، وغالباً ما تصل إلى الزر الأخير قبل أن تفتح سهر الباب، تدخل بعزم تاركة جسدها يتحرر فيرتفع الرداء الحريري وراءها ويطير على شكل عاصفة محملة بالغبار والدخان الأسود. تجلس سهر تحت الشباك لتحمي شريط ذاكرتها الصباحية وتصمت كأنها تريد ترسيخ المشاهد الجديدة التي ولجت للتو إلى خيالها. تسكت سمية وتتواطأ مع سهر بشكل غير معلن كي تدعها تكمل تنظيم أفكارها بهدوء وطمأنينة.

كعادتها كل خميس، تأتي الحاجة مريم لتتلو آيات من القرآن وتغرقهما بدروس التفسير والشريعة. الحج والحجاب والإلمام بالدين هي الحجج الأقوى لنعت مريم بالحاجة، فقوامها عارٍ من الحجاب وكلامها بعيد عن الدين وحياتها خالية من تجربة الحج مما يعطي انطباعات مختلفة تماماً. تلك الأمور شجعت دائماً سهر وسمية على سماعها بشغف الجمال وليس الدين. تأسرهما بشعرها الكثيف اللامع، تنسل بخفة إلى خيالهما بحركة يديها النحيلتين المتناسقتين، تأكل أعينهما بكلامها الواثق المتزن، مقابل ثلاثمائة ليرة على الرأس. رفض محمود بداية دفع المبلغ المطلوب، إلا أن سهر لاحقته بعذاب الآخرة حتى وافق.

مريم الأرملة، لم تتزوج بعد رحيل زوجها. دروس الدين هذه تقتل وحدتها وتؤمن لها طعاماً وعيشاً متواضعين. لم تتردد الجارات يوماً في حياكة القصص عن إصرار مريم على عدم الزواج ثانية. واحدة تقول أن علاقة سرية تربط مريم بتاجر غني في سوق "الحميدية" وهو يرفض الزواج منها خوفاً على سمعته في السوق، فعمه أبو زوجته من أكبر التجار المصدرين للتحف الشرقية. وأخرى تروي أنها شاهدت مريم

بصحبة ضابط في منطقة "بلودان". وسهر تمزق ما تحيكه الجارات وتنفض الغبار باستمرار عن صورة مريم المقدسة في مخيلتها.

كعادتها، أخرجت الحاجة من حقيبتها الجلدية ثلاث مسبحات من الخرز صنعها أخوها عندما كان في السجن. بدأن بالتسبيح بوجل عظيم. تلت مريم ما تيسر من الآيات القرآنية ورددت من بعدها سهر وسمية، "صدق الله العظيم". الماء يغلي ويوشوش في المطبخ الصغير. سهر تحضر القهوة وسمية تجهز ثلاثة صحون من الهريسة أحضرها محمود في طريق عودته من حمص. سهر تعشق الجزء الثاني من الدرس. يحتسين القهوة، وتقترف سهر ذنباً عظيماً فتسرق سيجارة من مريم ثم تهرول إلى المغسلة لتقتل رائحة الدخان البغيضة كما يصفها محمود. هو يدخن لكن لا يروقه أن تدخن سهر وتكتسب صفة من صفات الرجولة. تندس سهر بعدها في أذني الحاجة وتمطر أسئلتها الخجولة. الحرام والحلال. الجنة والنار. الخير والشر. وكل التناقضات التي تعيشها على شباكها، تلك الزاوية الوحيدة التي تمتلكها سهر في البيت. البيت الذي ألفته ربما أكثر بكثير مما ألفت زوجها محمود.

كعادتها كل مساء خميس، تنتصب سهر طويلاً أمام المرآة. تدخل الكحل إلى عينيها الخضراوين، فيضيع الأخضر في بحر من الفجور والغواية. يغزو شعرها الأشقر مشط من العظم. تتلون وجنتاها بأحمر فاقع. تلمع شفتاها الغليظتان ببني مائل إلى الحمرة. تتعرى من دروس الصباح ومن الحرام والحلال، ويبدأ الجد. تلبس بذلة رقص حمراء قانية، تزينها الحلي الرنانة، ويلونها بعض الأزرق ليبرز معالم سهر الأنثوية، ثم تكتمل اللوحة بكندرة شفافة ترفع قوامها تسعة سنتيمترات، وتزيدها واقعية.

كعادته كل مساء خميس، يتمدد محمود على سرير الزوجية بجسده المختنق بالشوق. يمج سيجارة وراء أخرى بحماسة يعكرها نفاذ الصبر. يمضغ قطع الخيار والبندورة بفم من شهوة، منتظراً الوصلة الخميسية.

كعادته كل خميس، يدوي الشريط ذاته بأغانٍ شرقية هابطة. يجن خصر سهر بحركات مدروسة. يهتز صدرها المندى بالعرق. تغمض عينيها وتغيب بعالم من الغرابة والإباحية. ثم تفتحهما بعد أن ينتهي صبر زوجها وتكون الحفلة قد انتهت.

- هل العهر حرام يا حاجة ؟

- ليس حراماً مادام للزوج.

التفصيل التاسع

محمد





على طريق دمشق بيروت، شقت السيارة الفارهة التي يقودها محمد طريقها بين الزحام. في الواقع لم يجد محمد صعوبة كبيرة في المناورة بين السيارات الملتصقة، فمجرد أن تظهر السيارة المتلألئة على مرآة السيارات الأخرى، يتنحى السائقون ليفسحوا لها مجال العبور بسلام. السيارة هذه كانت بمثابة بيت حميمي يعيش محمد في أحشائه، بين أضلع حديده القاسي والبراق، صدى ضجيج المحرك الضخم والرقيق. يتنفس رائحة الكراسي الجلدية الطازجة فينتشي وربما يسكر. يتحسس بأصابعه النحيلة المقود الخشبي الناعم فيرتجف من السعادة. حتى محرك السرعة الخشبي كان يمسكه بدهشة ويشعر أن حياته تسير بسرعة أو ببطء، أنها كُثفت وتجمعت بكل تفاصيلها في هذا المحرك.

ذلك الصباح، رنت الساعة السادسة بصخب. فتح محمد عينيه وحاول مداعبة ذاكرته. تذكر أن طريق دمشق بيروت بانتظاره، بطوله وعرضه. بحداثته المرعبة. بالألق الذي تخلفه سيارته الباهرة في أعين زملائه سائقي سيارات الأجرة المعدومين. تذكر تلك المسافة القصيرة والساحرة التي تفصل دمشق الكئيبة عن بيروت المجنونة بالحياة والضجيج والألوان والأجساد العارية اللذيذة. نهض بسرعة، وقف منتصباً على الفرشة الاسفنجية الممددة على الأرض، وخرج من الغرفة الضيقة المخنوقة برائحة النوم. أعمته العتمة فداس على فخذ زوجته

فاستيقظت، وتعثر من حماسته فسقط على أحد أطفاله الستة المتراصين على ثلاث اسفنجات رقيقة. لعن الله ثم استغفره. شتم زوجته ثم لم يعتذر منها. خرج بسرعة من الغرفة الضيقة المحمومة برائحة النوم والشخير والنفس المتراكم كجثث متعفنة.

على طريق دمشق بيروت، تساوت السيارات بعد الأزمات الأخيرة، فلا فرق بين سيارات الأجرة أو الشاحنات المحملة بالخضار والمواد الغذائية أو بين السيارات الخاصة الفقيرة منها والثمينة. إلا أن سيارة "البي إم دبليو" التي يقودها محمد لا يمكن أن تتساوى مع معظم السيارات الأخرى. فهيكلها المتوحش بضخامته يسحر. ولونها اللطيف البراق يثير الحسد فتمتصه الخرزة الزرقاء المعلقة على المرآة الأمامية. لم تكن وطأة الزحام ثقيلة داخل السيارة. فالتكييف يجعل فضاءها الداخلي أشبه بقطعة رخام باردة لكن غير مؤذية. واتساعها يبدو غير واقعي، فالكراسي الجلدية تحرك كل مفاصلها وأضلاعها وعضلاتها فقط لتتلاءم مع انحناءات الجسد.

ذلك الصباح، خرج محمد من الغرفة الضيقة المخنوقة برائحة النوم. ارتدى ملابسه بسرعة ومن شدة الفرح والحماسة نسي أن يحتسي القهوة. خرج مسرعاً إلى الزقاق الترابي المحشو بالقمامة والذباب والقطط المتسخة. كانت السيارة ما تزال صامدة تدافع عن عنفوانها أمام الروائح المقرفة التي تبعث على الإقياء. هذه المرة الأولى التي تنام بها السيارة في الخارج، بالقرب منه، قبالة شباك غرفتهم تماماً. فعبير طلبت ذلك منه مساء البارحة لأنها ستغادر باكراً إلى بيروت لتمضي اليوم بطوله في الأسواق. لم يكن الطريق الذي يصل مخيم "جرمانا" بفيلات المزة الغربية

مزدحماً. فالمدارس لاتزال مغلقة، والموظفون لا يخرجون عادة في هذه الساعة المبكرة. وبالتالي سيارات الأجرة الصفراء وباصات النقل العام لم تتحرك بكثافة بعد لتملأ الشارع دخاناً وقذارة. ذلك الصباح، شعر محمد أنه يمتلك الطريق وإشارات المرور، ورجال الشرطة المتعبين من الاستيقاظ الباكر. حتى السيارة الفارهة شعر أنه يملكها وتملكه.

ركن السيارة أمام عمارة المدام عبير. أخرج من الصندوق الخلفي ممسحة خضراء. وملمع زجاج، وبدأ يبخ ويمسح، يبخ ويمسح، هكذا حتى أيقظت أحلامه رائحة العطر الذي دلف للتو إلى مسامات جسد عبير. هرول إلى الباب الخلفي اليميني، انحنى أمامها، فتح الباب وانتظرها حتى تجلس فأغلقه بكل هدوء، ثم هرول إلى الباب الأمامي، الباب الذي يمتلك، وارتمى على المقعد معلناً بذلك بداية رحلة طويلة لكن ممتعة. طلبت منه عبير أن يضع "سي دي" فيروز الصباحي، وأن يخفض الصوت قليلاً، يرفعه قليلاً، أكثر بقليل، نعم هكذا بالضبط. كانت مدام عبير ترتدي كل ملابسها. بنطال طحيني يجعل من مؤخرتها كتلة غير متناسقة بضخامتها وتعرجات لحمها المترهل. كنزة قطنية لونها الزهري فاقع ترتمي فوقها سترة طحينية أيضاً أكمامها طويلة. شال يلف رأسها بعناية لونه زهري ومطبوع عليه من كل جانب ماركة "كريستيان ديور". حقيبة يدها كانت من كريستيان ديور أيضاً، ولونها زهري أيضاً ومزينة بورود صغيرة حنطية اللون أيضاً. مدت عبير يدها إلى الحقيبة وأخرجت هويتها ودفتر سيارتها التي اشتراها لها زوجها ليس في عيد الأم ولا في عيد ميلادها ولا حتى في عيد زواجهما، وإنما هكذا دون أي مناسبة.

نظر محمد في عينيها المختبئتين وراء نظارة شمسية ضخمة، زادت

من ضخامتها كلمة "ديور" المذهبة البارزة على طرفيها بكل جرأة وجسارة. نظر في عينيها من المرآة الأمامية بدهشة كبيرة. لمح وجهها الأبيض المطلي بماكياج خفيف ربما يكون من ماركة "ديور"، من يعلم. غالباً ما أثارت عبير دهشته. ملابسها، حقائبها، منديل رأسها، المجوهرات المرصعة بالماس البراق المترامية بكثافة على صدرها وبين أصابعها وحول معصميها. كانت تسحره بسلطتها الطاغية. تأمره بشيء من الفوقية أن يسرع أو يبطئ. أن يستبدل صابر الرباعي أو كاظم الساهر بفيروز. أن يزيد من برودة المكيف أو يخففها. تتحدث معه بنبرة تضج جلافة وقسوة. تتحدث معه دون أن تنظر إلى عينيه. لكن محمد وعد نفسه ذلك اليوم أن يتحمل كل هذا الألم ليعيش حلمه ويغذيه، ليقود مصيره بسرعة سيارته الحديثة، ليرضي حاجته للتميز ولو لمرة واحدة في حياته، ليلمح بريق الغيرة والحسد في أعين زملائه سائقي سيارات الأجرة.

مرت ثلاثة أرباع الساعة. مرت بسرعة كبيرة. ظهرت السوق الحرة السورية ببنيانها الضخم والقبيح، فأمرته عبير بالتوقف بنبرتها الجلفة ذاتها. توقف محمد والطاعة تنفجر من عينيه. ثم طلبت منه أن يرافقها فأسرع بإطفاء المسجلة والتكييف والسيارة ونزل مرتبكاً. لم يسبق له أن دخل السوق الحرة. فزبائنه الميسورون لم يطلبوا منه يوماً أن يرافقهم. مشى خلفها بخطاً مدروسة للغاية. تسرع خطاها، يسرع خطاه. تتوقف قليلاً لتمسح حذاءها المغبر فيتوقف هو أيضاً منتظراً إشارة الانطلاق من جديد. ثم قفز فجأة أمامها ليفتح لها الباب، فهذا ما تعلمه من أصدقائه الذين خدموا عند أشخاص موقرين وأثرياء وينتمون إلى الطبقات

المحترمة. لم يعتد محمد على المشي خلف زوجته أو فتح باب البيت أمامها لتدخل. تمشي هي خلفه وعيناها مزروعتان في الأرض. اعتاد أن يدخل قبلها إلى بيتهما أو بيت أهلها أو أهله. أن يطلب منها كل شيء. فنجان القهوة والفطور والعشاء والملابس العتيقة لكن المكوية بشكل أنيق. يطلب منها أن تدلك له ظهره في الحمام وأن تعطر جسده بالصلاة على النبي قبل النوم. لم يكن يتخيل في حياته أن هناك سلوكاً معاكساً لسلوكه. أن يكون على الرجل احترام زوجته وليس العكس.

دخلت عبير، فدخل وراءها. طلبت منه أن ينتظرها عند مكتب المحاسبة. لكنه ثبت عينيه على جسدها كي لا تغيب عن نظره، فربما احتاجته بأمر ما فيلبيها بسرعة كبيرة. شعر بدوار خفيف وقشعريرة امتدت من رأسه حتى أسفل قدميه. هذه المرة الأولى التي يدخل فيها إلى مكان كهذا المكان. تسللت روائح العطور إلى شهيقه ثم إلى خضاب دمه. خليط صعب من الروائح الساحرة أسكرته ودغدغت مسامات الحرمان المتجمعة في بعض زوايا جسده. تجاذبته العطور بسرعة كبيرة وصارت تلعب بأعصابه. تتسابق بالتسلل إلى أحشائه. حتى روائح العطور تحب تلك الدهشة التي تتسلق وجه شخص جاهل ومحروم. تعشق التلاعب بنبضات فؤاده وبلبلة أحاسيسه الفارغة من مفردات الرقي.

استيقظ محمد فجأة وبحث عن عبير. كانت تملأ المكان صخباً وفجوراً. تسأل عن عطر ما، ثم تبدي امتعاضها لنفاذ عطرها المفضل من هذا المكان الراقي. ثم تصرخ في وجه البائعة لتخبرها بأن الرقي لا يليق بأبناء البلد المتخلفين. تطلب أحمر شفاه من ماركة "غيرلان" فيعجبها فتشتري كل الألوان. تسأل عن أحدث ماسكرة ابتكرها خبراء الجمال

فتختار أربعة أنواع وبألوان مختلفة. يعجبها سوار من الذهب الإيطالي الناعم فتبحث من وراء الزجاج الذي لمعه عامل التنظيفات للتو، عن عقد يليق بالسوار. ثم تلمح ساعة ضخمة من الجلد الطبيعي والذهب الخالص فتشتريها. مرت ساعة كاملة وهي تعبر السوق من شرقه إلى غربه ومن جنوبه إلى شماله. تجوب زواياه وتتأمل زجاجات العطور وعلب الماكياج المرتبة بعناية على الرفوف الزجاجية.

بعد ساعة كاملة بالضبط نادته عبير، فهرول متجاهلاً دواره وتلك الدهشة التي لن ينساها ربما العمر كله. وقف خلفها بالضبط، لا يفصله عنها سوى تلك المسافة القليلة المحشوة بالسلطة والمال والجلافة. رتبت لها المحاسبة أغراضها في أكياس كبيرة ثم حدثت الكارثة العظمى في حياته. قالت لها المحاسبة : " فقط ألف دولار مدام ". تزعزعت أوصال محمد. شعر بالاختناق. أحس بصدره يضيق ويتضاءل. وما زاد حجم الكارثة في قلبه أن مدام عبير لم تبد أي دهشة أو استغراب. بالعكس تماما، فتحت حقيبتها وأخرجت رزمة من مئات الدولارات. أعطتها ألف دولار أميركي كما يعطي محمد زوجته مئتي ليرة سورية لتشتري ما تطعمه لأولادهما بعد عودتهم من المدرسة.

حمل محمد الأكياس الكبيرة والثقيلة ووضعها في صندوق السيارة الخلفي. ثم فتح الباب الخلفي وتأكد أن المدام عبير جلست بشكل مريح وأن أطرافها الثخينة قد دخلت إلى السيارة بشكل كامل فأغلقه بكل هدوء. تذكر اليوم الأول الذي عمل فيه عند المدام. يومها أغلق الباب بطريقة عفوية كما اعتاد دائماً على فعل ذلك، فصرخت عبير وقالت له إن باب هذه السيارة يساوي ثمن بيته وبيت أهله وبيوت أقربائه كلهم.

وإن باب سيارتها الرقيقة لا يتحمل البهدلة كباب بيته العتيق والمتواضع. لم يكرر محمد بعدها جريمته النكراء. صارت يده رقيقة للغاية، وصوته ناعماً ومفعماً بالطاعة، وعيناه مهذبتين وخجولتين، وسلوكه محترماً وراقياً، حتى مخاطه صار حريصاً على التزام مكانه في الجيوب الأنفية وعدم السيلان رغم الرشح اللعين، خوفاً من أن يخدش رقي المدام عبير وكبرياءها.

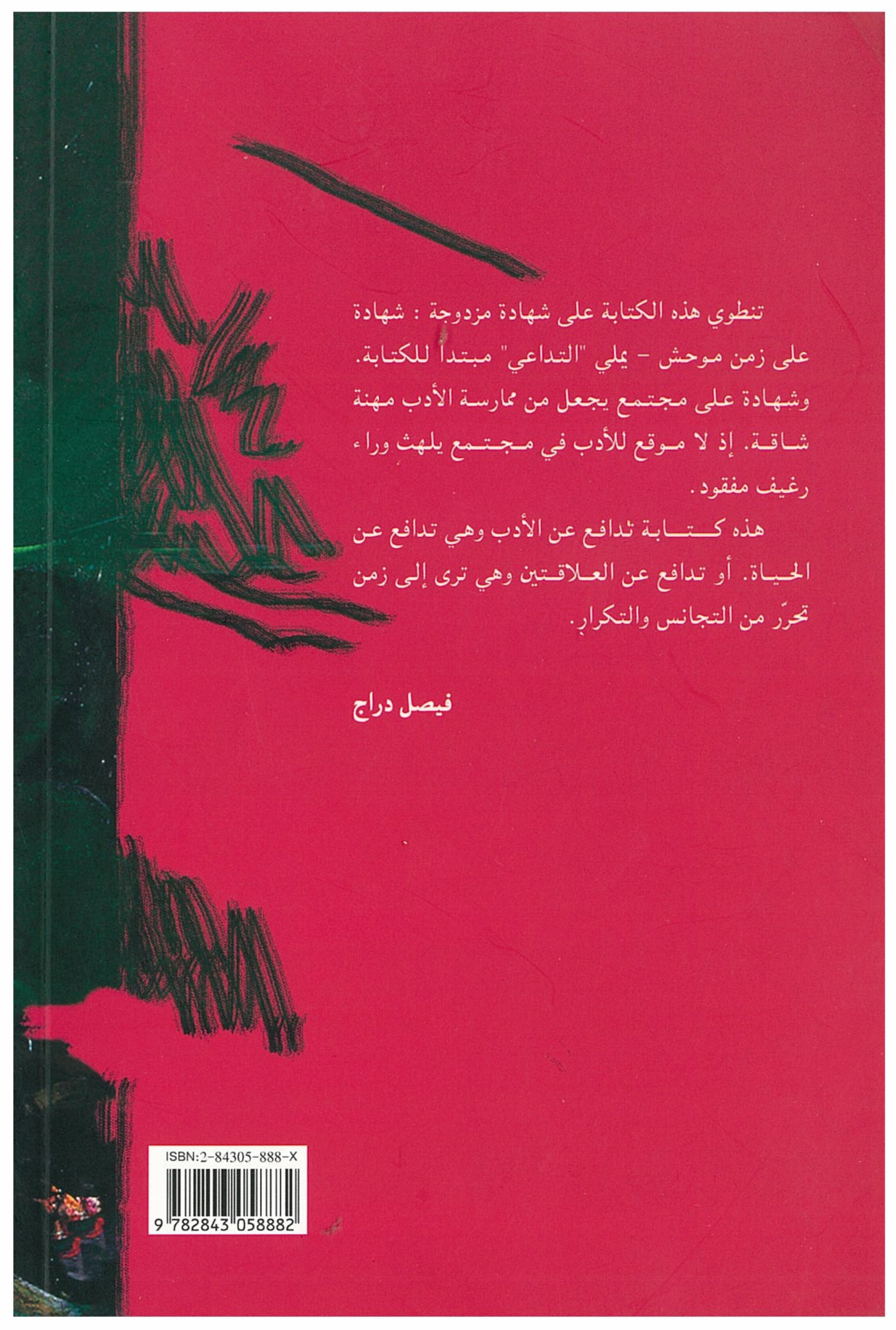
وأخيراً ظهرت بيروت ككتلة تشتعل حياة وشغفاً. جسورها وأنفاقها الحديثة تجاور بكل حب الأبنية المثقوبة بالرصاص والمدمرة تماماً. الأبنية المعمرة منذ بضع سنوات تفيض بألوان جميلة وبدفء نادر. تمنى محمد لو أنه جاء بصحبة هذه السيارة إلى بيروت منذ سنوات أي قبل خروج السوريين منها. لو حدث ذلك لكانت نظرات الارتياب أمطرته سعادة وقوة. خاصة وأن السيارة التي يقودها بنمرة سورية كانت امتيازاً لا تملكه إلا شريحة ضئيلة من السوريين السائحين في بيروت. لكن القدر المجنون حوّل الامتياز هذا إلى شبهة ومغامرة غير مأمونة على الإطلاق. فكونك سورياً وتمتلك هكذا سيارة فأنت حتماً من المقربين والمرضي عنهم غير المغضوبين عليهم ولا الضالين. لكن القدر شاء أن يُحرم محمد من هذا النعيم كما حُرم دائماً من كل التفاصيل التي تمت للإنسانية بصلة. مضت سنوات وهو يعمل سائقاً على طريق دمشق بيروت دون أن يستطيع شراء سيارته الخاصة. مر زمن بطوله ومحمد يخوض كل المهن من سائق عمومي إلى سائق خصوصي إلى معلم باطون إلى عامل تنظيفات إلى كل ما يمكن تصوره. و أحلام محمد تتحجم يوماً بعد يوم. كان يحلم باستبدال الزريبة التي يعيش فيها مع زوجته وأولاده ببيت

حقيقي تدخله الشمس من شباك واحد على الأقل. ثم صارت السيارة حلمه الكبير فامتلاكها يسهل عليه العمل ويزيد الربح. صار بعدها يحلم بمنح أطفاله الستة حياة كريمة. ثم تخلى عن الحياة الكريمة والسيارة والبيت واختصر حلمه وحجمه، فصارت العودة إلى البيت مساء بعد يوم شاق محشوٍ بالإرهاق ومندّى بالعرق هي الحلم الأكبر الذي يحققه محمد، على الأقل في كل مساء.



الفهرس





تنطوي هذه الكتابة على شهادة مزدوجة : شهادة على زمن موحش - يملي "التداعي" مبتدأ للكتابة. وشهادة على مجتمع يجعل من ممارسة الأدب مهنة شاقة. إذ لا موقع للأدب في مجتمع يلهث وراء رغيف مفقود.

هذه كتابة تدافع عن الأدب وهي تدافع عن الحياة. أو تدافع عن العلاقتين وهي ترى إلى زمن تحرّر من التجانس والتكرار.

فيصل دراج

ISBN:2-84305-888-X

9 782843 058882